"النقدُ الأدبيُّ البيئيُّ؛ قراءةٌ في مُدوّنةِ الدراساتِ العربيّةِ البيئيّةِ، وممارسة تطبيقيّة على قصة "رأيتُ النخلَ" لرضوى عاشور "

"Ecocriticism: An Analysis of Arabic Ecocritical Studies and an Application on Radwa Ashour's short story “I Saw Date Palms”."

دكـتور
هاني علي سعيد محمد
أستاذ مُسَاعد البلاغة والنقد، بقسم اللغة العربيّة،
كليّة الآداب، جامعة الفيوم.
has00@fayoum.edu.eg

ملخص البحث

عَنَتْ هذه الدراسةُ بتقديمِ تأصيلٍ للنقد الأدبيّ البيئيّ، وهو فرع جديد كانت بداياته الفعلية من تسعينيات القرن المنصرم، ويهتم بقراءة تمثيل البيئة والمنظومة الطبيعية في الأدب، وقد جاء هذا التأصيل مفصحا عن أهم خصائصه، وشروطه، ومجالات دراسته، والتحديات التي تواجهه، بالإضافة إلى تحديد سماتٍ للنص الأدبي البيئي، ثم قدمنا دراسة ببليوجرافية لِعَيِّنَةٍ من الدراسات العربية في النقد البيئي، أردفناها بتحليل حددنا فيه أهم إشكاليات هذا النقد. أما الممارسة التطبيقية فقد حللنا فيها الرؤية البيئية في قصة "رأيتُ النخل" للمبدعة رضوى عاشور، وحاولنا الإجابة عن: كيف تمثّلت القصةُ القضايا البيئية، وما انعكاس البيئة على الذات، ومدى تفاعل الذات مع المنظومة الطبيعية؟ وكيف قُدّمَتِ البيئةُ جماليا في القصة؟ وقد توصل البحث إلى أن النقد البيئي يضطلع بدور مهم في إحداث وعي بيئي، والتزام جمالي وأخلاقي تجاه قضايا البيئة، كما أن القصة نجحت في نبش أنساق ثقافية وقضايا اجتماعية وقفتْ دون تحقيق حُلم الكاتبة بمدينة خضراء، وذلك بسبب تنامي تسلط الإنسان على البيئة، وتفشي قيَمٍ مضادةٍ لمنظومتها.

– الكلمات المفتاحية:(النقد، البيئي، رضوى عاشور، قصة، رأيت النخل)

Abstract

This paper aims to establish the origin of ecocriticism, a recent criticism whose actual beginnings were in the nineties of the last century; it is concerned with scrutinizing the representation of the environment, and the natural system in literature. In addition to defining the characteristics of the environmental text, establishing the origin of ecocriticism has revealed the features of ecocriticism, its specificities, its fields of study, and challenges facing it. Then, a bibliographic study of a sample of Arabic ecocritical studies is presented, and it is followed by an analysis where the most significant problems of this criticism are identified. As for application, the environmental vision in Radwa Ashour's short story “I Saw Date Palms” is analyzed. In addition, the paper attempts to answer the following questions: How are environmental issues represented in the short story? How is the environment reflected on the self, and to what extent does the self-interact with the natural system? How is the environment presented aesthetically? The paper has concluded that ecocriticism undertakes an important role in giving rise to the environmental awareness, and ethical obligation towards the environmental issues. Furthermore, the short story has succeeded in unearthing cultural attitudes, and social issues that have precluded the author's dream of having a green city because humans’ hegemony over the environment has increased, and values opposing to its system have prevailed.

Keywords:(Criticism, Environmental, Radwa Ashour, Short story, I Saw Date Palms)

مُقدَّمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ، وبجوده ومَنِّه تحصلُ البركاتُ، وأصلّي وأسلّم على النبي الخاتمِ محمّدٍ ρ أتمَّ وأفضلَ الصلواتِ، وبعدُ،

فإن النظرية النقدية ما بعد البنيوية سَعَتَ إلى تفكيك الخطاب الشموليّ، ونَزع السيادة التي يحتلها الإنسان داخل المنظومة الطبيعية، بعد أن أدّى العلمُ التجريبيُّ بفلسفاته ونظرياته التي قادها :"كوبرنيقوس، وجاليليو، ونيوتن، وديكارت، وبيكون، وغيرهم..." إلى توحُّش العلوم الطبيعية، ومِنْ ثَمَّ توحُّش الإنسان، خاصةً بعد أن مكّنته هذه العلومُ من أن يكون مركزا للكون، وصيّرتِ الطبيعةَ نهْبًا له بلا رادع، ووضَعَتْ مواردَها (المحدودة) لإشباع نُهمته، وتحقيق رغباته غير المشروعة قبل المشروعة، مما أدّى إلى الإخلال بمواردها، ووقوع كوارث حاقتْ بها، وزوال التوازن البيئي، الذي ينذر بفناء الإنسان؛ بوصفه جزءا من هذه المنظومة، والكائن العاقل المسئول عن بقائها لا فنائها.

وفي هذا السياق تنامَتِ الدراساتُ والحركاتُ المناديةُ بوقف جماحِ هذا الاستغلال البشري للموارد الطبيعية؛ فنشأت حزمةٌ من الأحزاب والجمعيات والفلسفات، التي اتخذت من اللون الأخضر شعارا لها، وقد تمخَّض عنها مؤخرا النقد الأدبي البيئيEcocriticism، وكان ويليام روكيرت أوَّل ناقد قام بتوظيف مصطلح "النقد البيئي" في مقالته: (الأدب وعلم البيئة، تجربة في النقد البيئي)، عام ١٩٧٨م، ثم أتبعه بعد ذلك بكتاب: "النقد الأدبي البيئي" عام ١٩٩٤م، مما يعني أن التسعينيات من القرن العشرين كانت شاهدةً على ظهور هذا الفرع الجديد داخل النقد الأدبي، الذي اهتم بدراسة تمثيل الطبيعة في الدراسات الأدبية، وبحث ظواهر الوعي البيئي في نصوصها، وتأويلها على نحوٍ يحقق الانتماء البيئي، ويكشف عن المسئولية الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان في تعامله مع بيئته تأثرا وتأثيرا.

وَقد تَنَايَعت – وإنْ بشكلٍ ضئيل– الدراساتُ النقديةُ العربيةُ على هذا الوافد الجديد مؤخرا، وبدا لها ظهورٌ يستشرف دراسةَ الأدب العربي من منظور بيئي، خاصة أن أدبنا العربي لم يتخلف مطلقا عن التعبير عن بيئته، وتحقيقِ قيمها الجمالية، فلا زلنا حتى هذه اللحظة نبتدر دراسة الشعر بمقولة: "الشاعر ابن بيئته"، أما الدراسات السردية فهي الوعاء الأول للبيئة؛ لكونها تُحاكي الواقع وتنغمس فيه، وتُخرجه في سياق أدبي قابل للتأويل والمعالجة، مما يعني أن النقد الأدبي البيئي أمامه طريق طويل، قد يكون شاقا؛ لأنه يُجابِهُ التحدياتِ نفسَها التي تجابهها البيئةُ من حولنا، وهي تتعرض لمتغيرات ممنهجة ومسيّسة برعاية علمية، لكنه، رغم ذلك، طريق بالغ الأهمية للدراسات الإنسانية بعامة، وللنقد خاصة؛ نثبت من خلاله – نحن رعاةَ الأدب والنقد– أن

التهوين من شأن العلوم الإنسانية هو في ذاته من أبرز مظاهر الإخلال، ويمثل دعوة نفعية براجماتية روّج لها دُعاةُ العلوم الطبيعية، فاخترعوا لنا الثنائية البغيضة المتعالية(العلمي والأدبي).

وَامتدادًا لهذه الدراسات النقدية البيئية يأتي هذا البحث، الذي عنونّا له بـ" **النقد الأدبي البيئي؛ قراءة في مدونة الدراسات العربية البيئيّة، وممارسة تطبيقية على قصة" رأيتُ النخلَ" لرضوى عاشور**." ووَفقا للعنوان فإننا أمام شقين، شقٍ نظري نقدم فيه تصورا نقديا لواقع الدراسات العربية التي انتهجت النقد الأدبي البيئي في أطروحاتها، مع تقديم رؤية تصوُّرية لهذا المنهج الجديد، ثم يأتي الشقُّ التطبيقي مشغولا بنص قصصي للروائية المبدعة رضوى عاشور– رحمها الله– وذلك في ممارسة تُعنى بكشف وُجْهاتِ النظر البيئية التي يحملها النص، وَفْقَ رؤيةٍ مستخلَصةٍ من أدبيات النقد الأدبي البيئي.

وفي ما يخص **أهداف الدراسة**، فإننا نهدف إلى بلورة الجهد المُقدَّم من الدراسات البيئية في النقد العربي، وذلك في محاولةٍ لاستكشاف مستقبله، وتحديد إشكالاته، وتأسيس رؤية منهجية واضحة له، وتحديد مجال اهتمامه وخصائصه، كما نهدف إلى مناقشة ما يتعلق بشروط النص الأدبي البيئي وسماته. أما أهداف الجانب التطبيقي، فتتعلق بإبراز رؤية القاصة تجاه البيئة، ومظاهر تمثيل مفردات الطبيعة في القصة، وتحليل المضامين الثقافية والفلسفية التي تتكئ عليها، وكيف تَشَكّلَ الوعيُ البيئيُ، والالتزامُ الأخلاقيُ، ومعاني الانتماء في النص، ودور الجماليات القصصية في إبراز هذه المعاني.

وقد بُنِيَتْ **خُطةُ البَحث** على: مقدمة، وثلاثة مباحث، الأول ندرس فيه النقد البيئي، فنؤصِّل له، ونذكر أهم خصائصه، ونقدِّم مفهوما لأهم المصطلحات المَعْنِيّ بمعالجتها، كما نذكر أهم سمات النص البيئي وشروطَه، ثم نقدّم قراءةً في دراسات النقد البيئي العربيّ، من خلال عيّنة من الدراسات التي نقوم بتحليلها ببليوجرافيا؛ للتعرف إلى مسلكها المنهجي، وذلك بغرض استكشاف إشكالات النقد البيئي العربي. أمّا المبحث الثاني، فيدرس القيم البيئيةَ في قصة "رأيتُ النَّخلَ"، فنقدم مدخلا أوليًّا؛ لمعرفة مدى توافر شروط النص البيئي في القصة، ثم نتتبع تمثيل القيم البيئية والمنظومة الطبيعية، ورؤية الكاتبة لقضايا البيئة فيها. ويأتي المبحث الثالث ليدرس المكوّنَ الجماليَّ المُعبِّر عن البيئة في القصة، ونتناول فيه جماليات اللغة، والتناص، والمكان، والشخصيات، وغيرها. ثم تأتي الخاتمة– بعد ذلك– مشتملةً على أهم نتائج البحث، ويليها ثَبَتُ المصادرِ والمراجعِ، التي استندنا إليها في إنجازه.

وتنتهج الدراسةُ منظورَ النقد الأدبي البيئي، وهو **منهج بينيّ** ينفتح على سياقات ثقافية وتاريخية واجتماعية وتأويلية متعددة؛ لنحاور من خلال هذه السياقات تمثُّلات البيئة في النص

المدروس، إلى جانب الاستعانة بإجراءات، من مثل: التحليل، والتأويل، والسياق، والتناص، بالإضافة إلى أدوات السرد، التي تعيننا على الكشف عن عناصر البيئة في القصة.

وأخيرا، فلم نعثرْ في **الدراسات السابقة** على دراسة تناولت قصة "رأيتُ النخل" لا من منظور نقدي بيئي، ولا من أية مداخل نقدية أخرى؛ طامحين أن يكون هذا البحث بداية لانفتاح دراسات بيئية جديدة على الإنتاج القصصي والروائي للمبدعة رضوى عاشور؛ نظرا لخصوصية أعمالها الروائية والقصصية في توظيف البيئة ومفرداتها، التي تتمدد في أعمالها لتتخذ أشكالا من الخيال البيئيّ المميز.

وختاما، فإن هذا البحث لا يدّعي لنفسه –أبدا– تميُّزا أو سبقا، وإنما هو لَبِنة في جدار دراسات النقد الأدبي البيئي، التي لا تزال تنقصه العديدُ من اللبنات ليكتمل بناؤه، وحتى تكتمل لبنة بحثي هذا، فإني أشكر قارئه على صبره، وعلى ما سيقدمه لي من إناراتٍ تضيء عتَمَاتِه.

الباحث،

المبحث الأول: النقد الأدبي البيئي: تأصيل وقراءة في مُدَوَّنَةِ الدراساتِ العربيةِ البيئيّةِ.

- أولا: الجانب التأصيلي.

١- الاصطلاح.

سبقت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى أن النقد الأدبي البيئي كان جزءًا من دراسات ثقافية خضراء[١] انطلقت قبله، تقودها فلسفات إيكولوجية تنادي بإعادة النظر في علاقة الإنسان بالمنظومة الطبيعية والبيئية، وذلك من أجل تعزيز الانتماء إليها، ومجابهة سيادة الإنسان المنتهكة لها، ومن الطبَعيّ أن يأتي تعريفُ النقد الأدبي البيئي في سياق رد الإنسان إلى بيئته، وهو ما نلحظه في التعريف الذي أورده "جرج جيرارد" بقوله إنه: "دراسة العَلاقة القائمة بين الأدب والبيئة المادية"[٢]، ومقصده من البيئة المادية هنا المحيط التفاعلي بين الإنسان ومختلف الكائنات وعناصر البيئة، وذلك في التأثير والتأثر المتبادل بينهما، مما يشكّل مؤشرا على ضمانة مهمة، وهي بقاء الإنسان داخل المنظومة البيئية لا مستعليا عليها. ويعرفه مايكل برانش بقوله: "هو ذلك الفرع من النقد الإيكولوجي الذي يركز على نحوٍ خاص على العناصر الثقافية، اللغة والأدب وعلاقتهما بالبيئة، إنه موقف نقدي يضع إحدى قدميه في الأدب والأخرى على الأرض"[٣] وتعريف "برانش" يحمل إضافة مهمة تتمثل في أن النقد الأدبي البيئي يشتغل على منهج بَيْنِي؛ إذ تنعقد فيه ترابطات نصية منفتحة على سياقات مختلفة، فهو منتمٍ – بشكل أو بآخر – للسياق النفسي، والفلسفي، والثقافي، والتاريخي، والاجتماعي،... وهذا الانفتاح أهم ما يميز النقد البيئي؛ لكونه ولد من رحم فلسفات ما بعد الحداثة، التي تُحرر الإنسان من الرضوخ للنقد الشمولي الصادر عن مؤسسات السلطة. وبالإمكان أن نضيف تعريفا جديدا يفيد من التعريفين السابقين، يكون فيه النقدُ الأدبيُّ البيئي إعادةَ استخلاصٍ لمظاهر الوعي البيئي المُعبَّر عنها جماليا في الأدب ونصوصه المختلفة.

٢- سمات النقد الأدبي البيئي ومواضع اشتغاله.

---

(١) تعرّضتْ دراسات متعددة لتتبع سياق ما قبل ظهور النقد الأدبي البيئي، وقد اكتفينا بما ورد في مقدمة هذا البحث من إشارة لهذا السياق. وللاستزادة يمكن مراجعة بحث الدكتورة: إيمان مطر السلطاني، وآخرَين، وعنوانه: النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، مجلة اللغة العربية وآدابها، علمية فصلية محكمة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الكوفة، مج(٣٣)، ع(١)، رمضان ١٤٤٢- آيار ٢٠١٢م، صص(١٢-٤٠). وقد تتبع بحثُهم مفهومَ البيئة والإيكولوجيا، وفرّق بين البيئة البيولوجية التي تتوجه للدراسات العلمية المحضة للكائنات الحية، والبيئة الثقافية، وتناول أيضا الإرهاصات الأولى لظهور النقد البيئي.

(٢) جرج جيرارد: النقد البيئوي، تر: عزيز صبحي جابر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٠.

(٣) مايكل برانش: النقد الإيكولوجي، الطبيعة في النظرية والممارسة الأدبيّتين، تر: معين رومية، دورية نوافذ، تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع(٣٦)، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ- مايو ٢٠٠٧م، صص(٢٧-٥١) والاقتباس : ص٤٤.

قدم الشاعر والناقد الإنجليزي "دونل دريس" Donelle N.Dreese مقاربة لمجال اهتمامات النقد الأدبي البيئي، منها: أنه يُعنى بدراسة مركزية المناظر الطبيعية في الخطاب الشعري أو النثري، بشرط تجاوز حدها الظاهري إلى تحليل انعكاسها على الذات، ويجيب عن أسئلة من قبيل: كيف قدَّم المبدعُ هذه المشاهد؟ وما موقفه الأخلاقي منها؟ وفيما يخص المكان فيرى "دريس" أنه ينبغي أن يتناول الناقدُ الأدبيُّ البيئي المكان في العمل الأدبي من زاويةِ تفاعلِ شخصياتِه مع بيئاتهم، والكشف عمَّا إن كان ثمة تضارب حاصل في هذا التفاعل، والعناية بتقديم مقترح لتغييب هذا التضارب(١). ويرى محمد أبو الفضل بدران، وهو من أصحاب الدراسات الرائدة في النقد الأدبي البيئي، أن موضع اشتغاله يكمن في:" علاقة ما بين الأدب والبيئة الطبيعية؛ بحيث نلمح الوعي البيئي والخيال البيئي في النص"(٢) .

ووَفقا لما ذُكر من سمات يمكننا القول: إن النقد الأدبي البيئي يمتد، أيضا، ليحلل الجوانب الثقافية والأدبية المؤثرة في رؤية الكاتب، ويهتم بالكشف عن الوظيفة البيئية المتوارية خلف الصفة الجمالية، كما يُعنى بالتفتيش عن سبب حضور البيئة في النص الأدبي، ومكونات الطبيعة المُعَبَّر بها في الصور البلاغية، وما ينطوي عليه العمل من قيم إيكولوجية، بالإضافة إلى الكشف عن وجهات النظر الخاصة بالبيئة داخل النص، وتعالق النص (تناصيا)(٣) مع النصوص الأخرى؛ لخدمة وجهة النظر البيئية، ورصد رؤى المبدعين تجاه البيئة، ودراسة القيم الجمالية والأخلاقية، التي يحملها الأدب تجاه المنظومة الطبيعية، مع احتراز مهم يتمثل في أن التحليل السطحي الذي يعمد فيه الناقد الأدبي البيئي إلى إحصاء أو تعداد أوصاف الطبيعة في النصوص الأدبية، ليس وراءه كبير فائدة إلا إذا استطاع أن يتجاوزه إلى تحليلِ ما يقف وراء هذه الأوصاف من رؤية إبداعية، والعمل على توجيهها من أجل خلق وعي بيئي.

وبذلك يتضح لنا أنَّ كلَّ نقدٍ أدبيّ بيئيّ يجب أن يناقش الضمير البيئي، ويهتم بالقيم الإيجابية تجاه البيئة في نقده، ويدرس الذوق الجمالي في التعبير عن مظاهر الطبيعة وعناصرها، ويستشرف في تحليلاته الرؤية البيئية لعناصر الطبيعة(٤)، وكل ما يتمثل البيئة والطبيعة أدبيّا وجماليا يُعدُّ داخلا في مجال اهتمامه.

٣- أهم المصطلحات المؤثرة في النقد الأدبي البيئي.

---

(١) Dreese, Donelle N. (2002). *Ecocriticism: Creating Self and Place in Environmental and American Indian Literatures*. New York: Peter Lang, p.3.

(٢) د. محمد أبو الفضل بدران: النقد الأدبي البيئي (النظرية والتطبيق)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠١٠، ص٦٦.

(٣) وقد شدد مايكل برانش على أهميتها في التحليل النقدي البيئي، ينظر: النقد الإيكولوجي، سبق توثيقه، ص٣٧.

(٤) ينظر: د. حفناوي بعلي، مدخل إلى نظرية النقد المقارن، (المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٧.

من تمام التأصيل الذي نقدمه للنقد الأدبي البيئي أن نذكر مجموعة من المصطلحات البيئية، التي راجت في الدراسات النقدية البيئية، وبخاصة في الجانب التطبيقي، ومنها:

- **الخيال البيئي: The Environmental Imagination**

وهو أحد المصطلحات التي صاغها لورانس بويل، وقد استطاع من خلالها أن يقدم تصورا جديدا لعلاقة الخيال بالواقع البيئي، وعنى به:" الكيفية التي تشكل بها البيئة المادية الخيال"(١) كما عبر عنه بأنه هو التمثيل الأدبي للطبيعة، وعلاقة الإنسان بها ليس بوصفها مسرحا للأحداث الإنسانية، ولكن "التمثيل" بمعنى الدفاع عن الطبيعة بصفتها كائنا(٢)، وبذلك يحتاج الخيال البيئي حساسية أكبر بالطبيعة أو الواقع، وهي حساسية أشبه بالتصوف الروحاني.

- **الإيكولوجيا/البيئة العميقة:Deep Ecology** وهو من ابتكار "آرني نيس" وصاغه في بحثه: " الضحل والعميق، حركات الإيكولوجيا بعيدة المدى"(٣) ويعبر هذا المصطلح عن إبطال مركزية الذات البشرية، وإنزالها منزلة متساوية مع بقية عناصر الطبيعة؛ إذ يؤمن الفلاسفة البيئيون بأن مركزية البشر قد سببت " استغلالا وهيمنة جائرَيْنِ للعناصر الأخرى"(٤)، ويؤثر هذا المصطلح في التصور الأدبي للوقائع البيئية، وعناصر الطبيعة، وذلك من خلال أنسنة الكائنات الأخرى، ومنحها وجودا مضاهيا للوجود البشري داخل النص، وهو ما سيتردد صداه في الشق التطبيقي من هذا البحث.

- **الاستدامة:Sustainability**

وهو مصطلح بيئي يُعَرَّفُ بأنه كل ما: "يصف كيفية بقاء النظم الحيوية متنوعة ومنتجة مع مرور الوقت، والاستدامة بالنسبة للبشر هي القدرة على حفظ نوعية الحياة، التي نعيشها على المدى الطويل، وهذا يعتمد بدوره على حفظ العالم الطبيعي، والاستخدام الصحيح للموارد"(٥)، وهذه الاستدامة تضع النصوص الأدبية أمام شرط مهم يجب تحققه في تناولها البيئي، يتمثل في ترك شعور إيجابي داخل متلقي هذه النصوص تجاه كل ما هو بيئي، وهو بُعْدٌ مهمٌّ يسهم في

---

(١) جيليكا توشيتش: النقد البيئي– دراسة في الأدب والبيئة، تر: سناء عبد العزيز، مجلة فصول في النقد الأدبي، مجلة محكمة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج(٢٦/٢)، ع (١٠٢)، شتاء ٢٠١٨، ص٣٣١.

(٢) Buell, Lawrence. (1995). *The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture. USA*: The Belknap Press, p. 52.

(٣) يراجع: آرني نيس: حركة الإيكولوجيا العميقة، بعض الجوانب الفلسفية، ضمن كتاب: الفلسفة البيئية، من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، مايكل زيمرمان، تر: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر، ٢٠٠٦، ٢٧٢/١– ٢٧٧.

(٤) مايكل برانش: النقد الإيكولوجي، سبق توثيقه، ص٤٢.

(٥) مجموعة من المؤلفين: النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات، إعداد وترجمة : نجاح الجبيلي، دار شهريار، العراق، ط١، ٢٠٢٠، ص٣٢٣.

تربية الشعور البيئي بداخله، ويُعزّزُ انتماءه للمنظومة البيئية، وهو ما سنحاول تحديد ملامحه في الجانب التطبيقي.

– **الحِس المكاني:** ويقصد به: " الربط والاستجابة ورَدَّة الفعل تجاه مكان ما"[١] وللمكان في النقد البيئي قيمة كبيرة؛ لكونه محيطَ التفاعلات البيئية، ويحتاج المبدع إلى النظر إليه بوصفه سياقا طبيعيا، لا بوصفه مجرد خلفية للأحداث.

– **التناص البيئي:** وهو مصطلح عثرتُ عليه في إحدى الدراسات النقدية البيئية المهمة والمبكرة، وقد اخترعه صاحبُه اختراعا للدلالة على :"نقل مفهوم التناص إلى مستوى البيئة"[٢]، ويقصد به أن المبدع يلجأ إلى استيراد مجموعة من النصوص، التي تحتفي بالبيئة والطبيعة في عمله الأدبي، فيمزج بذلك بين نصين أحدهما بيئي والآخر غير بيئي، ويضرب على ذلك مثالا تطبيقيا، من نص الروائي اليمني محمد عبد الوكيل: " كيف ارتجت الأرض وأخرجت من رحمها هذه الفتاة المرتوية بدماء شفافة، مثل زرع اشتدت خُضرتُه تحت سياط المطر الموسمي"[٣]، فمشهد الفتاة الغارقة في دمائها الشفافة، متداخل مع نصين بيئيين قبله وبعده.

٤– خصائص الأدب البيئي.

والإشكالية التي نحاول الإجابة عنها هنا تتمظهر في سؤال مهم: هل كل نص أدبي يصلح أن يكون نصا بيئيا؟ وبالطبع الإجابة: لا؛ لأنه إذا كنا قد حدّدنا سماتٍ للنقد الأدبي البيئي، فمن البدَهي أن للنص الأدبي شروطا أيضا؛ لكي يوصف بالبيئي، وقد تناول الباحثون كثيرا من الاشتراطات الواجب توافرها في الأدب ليصير نصا أدبيا، منها: أن يحسن تمثل معالجة الأضرار التي حاقت بالمنظومة الطبيعية، ويشارك في نشر الوعي من خلال حركة تنوير عالمية[٤]، كما يشترط "إحساس الكاتب بالبيئة"[٥]، فليس كل أدب وصف الطبيعة عُدَّ أدبا بيئيا، بل يجب أن يحاور الأديبُ هذه الطبيعة داخل النص، ويتفاعل معها عبر تمثُّلات مختلفة واعية، بالإضافة إلى أن النص الأدبي البيئي يجب أن تتوافر له أيضا مجموعة من الخصائص المائزة، التي تفترق به عن النصوص الأدبية غير البيئية، من ذلك: أن يحمل مبدعه همّا بيئيا، وأن يعتنق أفكار الامتزاج والاندماج بالطبيعة داخل النص، والاحتماء بها، وأن تُعلي هذه النصوص

(١) النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات: ص٣٢٤.

(٢) د. عبد الحميد أحمد الحسامي: الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، مجلة علامات في النقد الأدبي، مجلة محكمة تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج(١٧)، ج(٦٨)، فبراير ٢٠٠٩– صفر ١٤٣٠، صص(٢٤٥–٣٠٤) الاقتباس: ص٢٩٦.

(٣) السابق: ص٢٩٣، ٢٩٤.

(٤) ينظر: النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، سبق توثيقه، ص٢٠.

(٥) د. محمد أبو الفضل بدران: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، ٢٠١٥م، صص(١٩٣–٢٠٣)، الاقتباس: ص١٩٦

من مبدأ التحول من الاجتماعي إلى الطبيعي، وتتنبأ في مخيالها بالعواقب الوخيمة المترتبة على انتهاك الطبيعة، وأن تدعم لغتُه، معجمًا وتراكيبَ، هذه الأفكار البيئية المهمة، ويحسن التعبير عنها جماليا بخيال أخّاذ يكون مسئولا عن تربية الذوق الطبيعي عند المتلقي، وتنمية الحاسة الأخلاقية والجمالية في تعامله مع المنظومة البيئية.

وقد خصّ " فيكتور بوستنيكوف" الشعر البيئي بمجموعة من الاشتراطات، التي دوَّنها في مقالته التي حملتْ اسم "الشعر الإيكولوجي"، من هذه الاشتراطات: الاستنارة ويقصد بها أن يقوم على الحدس، الذي تتلاشى فيه الحدود بين العالَمين الداخلي والخارجي، بالإضافة إلى التفنُّن في الأساليب، والتركيز على الروحي، والعمق الفلسفي، والتناغم، والبساطة، ويضرب أمثلة على هذا النوع من الشعر لطاغور، وجوته، ووالت وايتمان، ونماذج أخرى(١) .

٥- التحديات والإشكالات التي تواجه النقد الأدبي البيئي.

يسرد صاحب كتاب" نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة"، جميل حمداوي، مجموعةً من التحديات التي تتهدد هذا النقد، منها: أنه يواجه صعوبة الانتماء؛ لتوزّعه بين الطبيعة والثقافة، ولكونه يتنافى مع خصوصية الأدب، الذي هو فن جماليّ، والبون بينه وبين الطبيعة أو البيئة شاسع، ومنها كذلك أن البيئة لا تدخل ضمن اهتمامات الأدب بل ضمن اهتمامات العلم، وأخيرا لأنه سيحوّل الأدب إلى وثيقة ثقافية أو اجتماعية، وهو ما تضيع معه ماهية الأدب الجمالية(٢)، والحق أن هذه التحديات لو جاز إطلاقها على النقد البيئي، فإنها من باب أولى يجب أن تطلق على كل النقد ما بعد البنيوي، وعلى رأسه النقد الثقافي، والتكويني، وغيرهما، وقد خلط "حمداوي" بين البيئة البيولوجية التي تتناول الكائنات وعناصر المنظومة البيئية تناولا علميا محضا، وبين البيئة الثقافية التي تعاطى معها الأدب، وعالجها الشعراء والكُتَّاب منذ زمن بعيد، وفي كل الثقافات واللغات لم يترك المخيال الأدبي بيئة إلا عبّر عنها، بل إن الأدب هو أصدق وثيقة عن الإنسان وبيئته، ومع ذلك لم يخفت الحس الجمالي أو يُنتقص، اللهم إلا في بعض النماذج التي نضب فيها مَعِيْنُ الإبداع، وفي أدبنا العربي قدَّم الشعر الجاهلي، والشعر الأندلسي أصدق تعبير عن بيئتهما، وحلّق شعراءُ الطبيعة عاليا ليحتلوا قمة الافتتان الأدبي، وذلك بتعبيرهم عن عناصر الطبيعة وتفاعلهم معها، وعلى المستوى الفردي يمكن أن ننظر كيف استطاع أبو نوَاس في ديوانه الشعري الفريد أن يسجل لنا سيرة ذاتية دقيقة

(١) فيكتور بوستنيكوف: الشعر الإيكولوجي، تر: معين رومية، دورية نوافذ، تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع(٢٧)، مارس٢٠٠٤، صص(٦٠-٨٤)، والاقتباس :ص٧٥، ٧٦.

(٢) ينظر: د. جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، كتاب إلكتروني، منشور بموقع جامع الكتب الإسلامية، ص٣٥٧، ٣٥٨. رابط الكتاب :

https://ketabonline.com/ar/books/96899/read?page=2&part=1#p-96899-2-2

للكروم والعنب، منذ أن كانت بذرة فنَبْتَة، وحتى صارت عناقيدَ تُعصر في معاصر الخمر، ومثله ابن الرومي، وكُشاجم، والصنوبري، وابن خفاجة، وغيرهم مع اختلاف التوجه الشعري لكلٍّ، وهو ما يوصلنا إلى نتيجة مفادها: أنه لا يوجد تعارض فيما بين البيئة والأدب، لا على مستوى التراثي منه، ولا حتى في الأدب المعاصر، الذي صار منتجوه أكثر فطنة ووعيا ببيئتهم.

وتكمن الإشكالية الحقيقية – من وجهة نظر هذا البحث– في مسلكين، مسلكٍ يرتبط بالطبيعة البشرية، وأنها تقف عدوةً لكل جديدٍ تجهله، وأعتقد أن هذا المسلك في طريقه إلى الزوال، فمنذ تسعينيات القرن العشرين حتى كتابة هذا البحث مرَّ أكثر من ثلاثين عاما، وما يزال الوعي بالدراسات النقدية البيئية ضئيلا جدا، وبخاصة فيما كتبه الباحثون العرب باللغة العربية، ولكن في الوقت نفسه وُجِدَ اطراد في عدد البحوث التي تنتهج هذا النهج البيئي في الأعوام من ٢٠١٠ وحتى الآن، وربما كان ظهور كثير من الكوارث الطبيعية سببا في هذا الاطراد، فالانحباس الحراري، وتغير المناخ، وندرة المياه، واختلال التوازن البيئي، ومؤخرا حرائق الغابات، ووباء كورونا، كلها أسهمت في وضع الخطر البيئي في مقدمة العنوانات المتداوَلة في الأروقة العلمية والأدبية، وبخاصة في الغرب.

أما المسلك الآخر فمتعلق بسرعة هضم الباحثين لهذه المنهجية الجديدة، ومن هنا تبرز إشكالية خطيرة، بدتْ في ركون بعض الدراسات للسطحية في التناول؛ ساعدهم في ذلك انفتاح منهج النقد البيئي على سياقات علمية مختلفة بوصفه تخصصا بينيّا؛ فظنوا أنه بذلك قد تحلّل من العلمية، وأن كل مَنْ دخل هذا المجال له أن يكتب ما شاء، ولذلك فنحن واجدون كثيرا من الدراسات النقدية لا علاقة لها مطلقا بالنقد البيئي، بل بعض النصوص المختارة للتطبيق لا علاقة لها بالنص الأدبي البيئي، وإذا كان المسلكُ الأولُ مرتبطًا بطبيعة إنسانية، فإن المسلكَ الثاني مرتبطٌ بالخمول الأكاديمي، الذي تُعاني منه الساحة النقدية العربية، والعادة النقدية المقززة التي يتحول فيها كل وافدٍ نقدي جديدٍ إلى قالَب تُصَبُّ فيه التجاربُ النقديةُ من دون وعي، ولكن لا يزال هناك أفتاءٌ يصحّحون مساراتِ هذا العلم، وهو ما يُبَشّر بازدهار الدراسات البيئية العربية، ويُعلي من شأن الدراسات النقدية، التي تَسَوّرَتْ على العلوم الطبيعية مجالَها، بل تسهم في تقديم حلول لما جنَتْهُ مخترعاتُها.

ثانيا: قراءة في مُدَوَّنَةِ الدراساتِ العربيةِ البيئيّةِ.

١ – مدخل لتحليل ببليوجرافي.

لا ندَّعي هنا القيام بإحصاء دقيق لكل الدراسات العربية المُنْجَزَة في النقد الأدبي البيئي، وإنما أحصينا فقط تلك البحوث التي طالعناها لإنجاز هذا البحث، وجعلناها **عينة** للقراءة، وقد اكتفينا بتلك البحوث التي كُتبت بالعربية؛ لأن عددا لا يُستهان به من الدراسات النقدية البيئية

لباحثين عرب، قد أُنجِزت بلغة أجنبية، وهو ما استثنيناه من الدخول معنا، بالإضافة إلى الدراسات المترجمة، فأيضا لم تدخل معنا في هذا المدخل الببليوجرافي. ونُعَدّدُ من دراسات النقد الأدبي البيئي العربية الآتي، وهي مرتبة من الأقدم للأحدث:

١- د. عبد الحميد أحمد الحسامي: الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، ٢٠٠٩م[١] .

٢- د. محمد أبو الفضل بدران: النقد الأدبي البيئي(النظرية والتطبيق)، ٢٠١٠[٢] .

٣- د. محمد بن يحيى أبو ملحة: قصص إبراهيم مضواح، دراسة من منظور إيكولوجي، ٢٠١٢[٣] .

٤- د. محمد أبو الفضل بدران: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية،٢٠١٥م[٤] .

٥- د. ضياء الرحمن، مقاومة بيئية في شعر محمود درويش، ٢٠١٦[٥].

٦- محمد فاضل المشلب: البيئة ظهورا شعريا، مجلة فصول[٦]، ٢٠١٨.

٧- د. هناء محمد مصطفى: المكان في شعر الاتجاه الرومانسي، دراسة في النقد البيئي، ٢٠١٨[٧] .

٨- علي رومي بور، وآخران: الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهر صفر زاده، ٢٠١٨[٨].

٩- د. إيمان مطر السلطاني، وآخران، نسق النسوية البيئية في رواية "حديقة حياة"، للطيفة الدليمي، ٢٠١٩[١].

---

(١) سبق توثيقه.

(٢) سبق توثيقه.

(٣) بحث منشور بمجلة تواصل، مجلة محكمة، جامعة عدن، ع(٢٨)، يناير ٢٠١٢، صص(٢١١-٢٣١).

(٤) سبق توثيقه.

(٥) بحث منشور بمجلة الديبل، مجلة علمية نصف سنوية محكمة، تصدر عن مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، حيدر آباد، الهند، مج(١)، ع(١)، يناير يوليو ٢٠١٦، صص(١٧١-١٨٨).

(٦) خصَّصَتْ مجلة فصول ملفا للنقد البيئي، في عددها(١٠٢)، شتاء ٢٠١٨، وقد اشتمل على أربعة مقالات مترجمة، وبحثين، جاء المقال الأول لجيليكا توشيتش: النقد البيئي، دراسة بينية في الأدب والبيئة، تر: سناء عبد العزيز، والثاني لمجموعة من المؤلفين، عنوانه: الأدب والبيئة، تر: معتز سلامة، والثالث للويس ويسلنج، عنوانه: الأدب والبيئة ومسألة ما بعد الإنسان، تر: عبد الرحمن طعمة، والرابع لجو موران، عنوانه: العلم والمكان والطبيعة في النقد البيئي، تر: سمر طلبة. أما البحثان، فالأول لأسعد دوراكوفيتش، عنوانه: المكان بوصفه بطلا في القصيدة العربية القديمة، تر: عبد الستار جبر. والثاني لمحمد فاضل المشلب، عنوانه: البيئة ظهورا شعريا، مقاربة نقدية في أشعار طالب عبد العزيز. ينظر الملف في المجلة: ص(٣٢٨-٤٣٦) .

(٧) بحث منشور بمجلة سرديات، مجلة علمية محكمة تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات السردية، ع(٣٠)، ديسمبر ٢٠١٨، صص(١٨٥-٢١٨).

(٨) بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الكوفة، مج(١٠)، ع(٣٧)، ٢٠١٨، صص (٩٣-١١٤).

١٠- د. فاطمة الزهراء محمد فوزي: النقد الأدبي البيئي: قراءة في الشعر العربي القديم[٢]، ٢٠١٩.

١١- د. أسماء إبراهيم حسين، النقد الإيكولوجي وتجلياته في روايتي(حرب الكلب الثانية) لإبراهيم نصر الله، و(إسكندرية ٢٠٥٠) لصبحي الفحماوي، ٢٠٢٠[٣].

١٢- د. نجود الربيعي: تتساقط الغزلان كالذباب؛ قراءة لقصة الغزلان على ضوء النقد البيئي، ٢٠٢٠[٤] .

١٣- خاليد مجاد: الإشكال البيئي في فن الرحلة المعاصر" فهد الثلوج" لسيلفان تيسون نموذجا، ٢٠٢٠[٥] .

١٤- د. إيمان مطر السلطاني وآخران: النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، ٢٠٢١[٦].

١٥- عبد الرحمن عبد الله أحمد: إيكولوجيا العتبات في المدونة السيرية" قبل خراب البصرة، كتاب الماء والنخل لطالب عبد العزيز، ٢٠٢١[٧] .

١٦- د. صابر محمد السيد جويلي: صورة الضب في المثل العربي القديم، مقاربة في مرآة النقد البيئي، ٢٠٢١[٨] .

١٧- خليل عبد القادر يوسف عيسى: البيئة في مجموعة أسامة العيسة القصصية "رسول الإله إلى الحبيبة" من رؤية النقد البيئي، ومنظور الماركسية البيئية.٢٠٢١[٩] .

---

(١) بحث منشور بمجلة:Route Education and Social Science Journal ، مجلة علمية محكمة تصدر عن أكاديمية ريس للنشر، تركيا، ع(٦/٢)، يناير ٢٠١٩، صص (٦٢٦-٦٥٢).

(٢) هذه الدراسة صدرت في جزء أول عن دار الأدهم بالقاهرة، ٢٠١٩، وكانت في الأصل رسالة جامعية مُنِحَتْ بها الباحثة درجة الدكتوراه، من جامعة الوادي الجديد بمصر، كلية الآداب بقِنا، ٢٠١٧، وعنوانها: "الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي في ضوء النقد الأدبي البيئي، نماذج مختارة"، بإشراف الدكتور: محمد أبو الفضل بدران.

(٣) البحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، ع(٥)، ج(٤)، ٢٠٢٠م، صص(٩٧٤-١٠٤٥).

(٤) بحث منشور بمجلة ذوات، مجلة ثقافية إلكترونية شهرية، تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث بالرباط، ع(٦٠)، ٢٠٢٠، صص (١٤٤-١٥١).

(٥) بحث منشور بمجلة رباط الكتب الإلكترونية، مجلة نصف سنوية متخصصة، تصدر عن مركز تواصل الثقافات بالرباط، (تنشر بأسلوب النشر المسترسل لا الأعداد)، ١٨ ديسمبر ٢٠٢٠، رابط البحث: https://ribatalkoutoub.com/?p=3531

(٦) سبق توثيقه.

(٧) بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية، مجلة محكمة تصدر عن كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج(٢٨)، ع(٢)، حزيران ٢٠٢١، صص (١-١٥).

(٨) بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد السادس، ج(٣)، ٢٠٢١، صص(٩٩٩-١٠٦٤).

(٩) بحث منشور بمجلة أوراق ثقافية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، مج(٣) عدد (١٥)، صيف ٢٠٢١، صص (٢٧-٤٦).

- التحليل:

يحسُن بنا في البداية أن نبيّن بعض الإحصاءات في الجدول الآتي:

عـــــدد الدراســات موزعـــة علـــــى الأعوام	٢٠٠٩	٢٠١٠	٢٠١٢	٢٠١٥	٢٠١٦	٢٠١٨	٢٠١٩	٢٠٢٠	٢٠٢١
	١	١	١	١	١	٣	٢	٣	٤
أقـــــدم الدراسات	دراسة: الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، ٢٠٠٩م. لعبد الحميد الحسامي.								
مجمـــوع الدراسات	سبع عشرة دراسة								

- نلاحظ أولا أن دراسة عبد الحميد أحمد الحسامي تعدُّ الدراسة الأولى، التي جمعت بين التنظير للنقد البيئي والتطبيق له، تليها دراسة" النقد الأدبي البيئي(النظرية والتطبيق)"، لمحمد أبو الفضل بدران، في عام (٢٠١٠)، وقد نسب كثير من الباحثين السبق للدكتور بدران، غير أنه مسبوق كما أشرنا[١]، بالإضافة إلى أن هناك مَنْ سبق" الحسامي، وبدران" في تناول "النقد الإيكولوجي"، ولكن لم يُفرد له دراسة خاصة، وإنما ذكره ضمن مجموعة المناهج الثقافية المقارنة، وهو الباحث الجزائري "حفناوي بعلي"، في دراسته: "مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن"[٢]، ويعود الفضل للدكتور "بدران" في الالتزام في بَحْثَيْه بمصطلح (النقد الأدبي البيئي)، في حين تناول "الحسامي" المصطلح بالتراوح بين النقد البيئي والنقد الإيكولوجي في بحثه[٣]، ليكون أبو الفضل بدران له أسبقية الثبات المصطلحي، وهو ما آثرناه لبحثنا من باب توحيد المصطلح.

- الملاحظة الثانية على هذه العينة من الدراسات أن السرد(قصة ورواية وأدب رحلات) احتل المرتبة الأولى في التطبيق، في حين جاء التطبيق الشعري أقل، ولعل هذا البحث يسجل ملاحظة مهمة تتعلق بقدرة السرديات على التعبير عن البيئة أكثر من الشعر، ويعود ذلك لانغماس السرد في الواقع، في حين يغلب تحليق الشعر في الجماليات والخيال، مما يجعله أبعد عن وقائع البيئة.

(١) من هذه الدراسات التي عَدّتِ الريادةَ الأولى للدكتور "أبو الفضل بدران"، دراسة النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات المعاصرة، د. إيمان مطر، ص٢٨، ودراسة الدكتورة فاطمة الزهراء محمد فوزي: النقد الأدبي البيئي: قراءة في الشعر العربي القديم، دار الأدهم، القاهرة، ط١، ٢٠١٩، ٤٧/١.

(٢) د. حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، مرجع سابق، ينظر كلامه عن النقد الإيكولوجي، ص٣٣٣.

(٣) ينظر بحثه: الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، سبق توثيقه، ص٢٥٤.

– نُسجل ملاحظة ثالثة في هذا التحليل تتضمن الإشارة إلى أنه بداية من العام (٢٠١٨) بدأت وتيرة الدراسات النقدية البيئية في التزايد، ونسجل أيضا أن من بين هذه العينة من الدراسات دراسة جامعية واحدة، وهي دراسة فاطمة الزهراء محمد فوزي، التي كانت أطروحتها للدكتوراه، وهو ما يعني أن هذا المساق الدراسي يغيب غيابا شبه تام عن أقسام الدراسات العليا في تخصصات النقد والأدب، وهو ما يعود بنا إلى الإشكاليات التي طرحناها حول النقد البيئي، وأنه لمّا يصل إلى الحياة الأكاديمية بعد في جامعاتنا إلا من خلال هذه الدراسة اليتيمة.

٢– قراءة في منهجيّة عيّنة من الدراسات.

على حدّ ما قدمنا من تأصيل للنقد الأدبي البيئي، شمل سماتَه وخصائصه واشتراطاته، بالإضافة إلى اشتراطات الأدب البيئي، فإننا وَفق ذلك وجدنا مجموعة من الدراسات التي لا تمُت بِصِلةٍ للنقد البيئي، ونكتفي بعرض قراءة لثلاث منها، أولها: دراسة "صورة الضب في المثل العربي القديم، مقاربة في مرآة النقد البيئي" لصابر محمد الجويلي، وقد نأى الباحث بها بعيدا عن منهجية النقد البيئي، فالدراسة مبحث ينتمي شطرٌ كبير منه للنقد الثقافي؛ حيث استخلص الباحث الأنساق المضمرة الواردة للضب في الأمثال العربية، مثل: القوة، العقوق، الخداع، الضلال والحيرة، قلة المبالاة[١]. أما الشطر الثاني من تحليله، فهو تحليل بلاغي للكنايات والتشبيهات في الأمثال التي تناولها، ولو اكتفى الباحث بالكشف عن الأفعال الثقافية (للضب) من وجهة النقد الثقافي لخلُصَت له وِجهتُه، ولسلِمَ له بحثُه؛ لكونه غيرَ مسبوق في هذا التناول، ولكنه أقحم (النقد البيئي) في العنوان لغير ما علةٍ ظاهرة، اللهم إلا إذا كان قد أراد أن يُضفي على بحثه الجِدة، خاصة أنه قد أفرط في مقدمة البحث في تقريظ النقد البيئي من جهة كونه درسا حديثا في النقد المعاصر، وأن بحوثه تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة[٢]، وغير ذلك من الأحكام التي أُطلقت على عواهنها.

الدراسة الثانية التي شابها عوار كبير في تناولها وَفق منهجية النقد البيئي، هي دراسة أسماء إبراهيم حسين، وعنوانها: النقد الإيكولوجي وتجلياته في روايتي(حرب الكلب الثانية) لإبراهيم نصر الله، و(إسكندرية ٢٠٥٠) لصبحي الفحماوي. وبداية ربما نتفهم أن يقع خطأ لغوي في بحث متخصص في اللغة العربية، ويُغتفر لصاحبه، أما أن يقع أكثر من أربعين خطأ لغويا

(١) صورة الضب في المثل العربي القديم، مقاربة في مرآة النقد البيئي، ص١٠٢٠–١٠٢٥.

(٢) يقول الباحث:" **ثم إن الدراسات العربية نادرة ندرة واضحة في النقد البيئي بوجه عام، حتى يمكن عدُّها على أصابع اليد الواحدة**" السابق، ص١٠١٠. ومن المعروف أن أصابع اليد الواحدة خمسة ! والعيّنة التي نقيم عليها قراءتنا في هذا البحث (سبع عشرة دراسة) أي ما يحتاج أكثر من أصابع اليدين معا لنقوم بِعدّها، وتعد ٩٩% من هذه الدراسات قد أُنجِزَتْ قبل إنجاز الباحث لدراسته، التي نُشرت في ٢٠٢١م، والأصل أن يكون قد اطلع على أغلبها!

فاحشا في البحث[١]، فهو مما لا يُغتفر أبدا! وهب أن هذه الأخطاء مرّت على الباحثة- وما كان لها أن تمر- فالمصيبة التي جلّت تكمن في: كيف مرت على المُحكّمين؟! خاصة أن البحث منشور في مجلة مُحكّمة!!

وبالنسبة لمنهج هذه الدراسة، فالباحثة انشغلت في أكثر من ثلثي بحثها بالتنظير للنقد الإيكولوجي، وقد جاء تنظيرا متكاملا شاملا، وإن شابَه التكرار؛ لكونه مبثوثا في دراسات سبقت، حتى إذا جاءت للتطبيق لم تستثمر شيئا مما نظّرت به في تطبيقها، وإنما اكتفت بإيراد اقتباسات والتعليق عليها، دون تحليل المرتكزات البيئية المختلفة في الروايتين، وقد تناولت الباحثة إبطال مركزية الذات، والتوعية بالكوارث البيئية في العملين محل التطبيق، وكان ينتظر منها استكمال هذا التحليل ببيان رؤية الكاتبين للبيئة؛ خاصة أنهما عملان فريدان في تمثُّل الطبيعة وعناصرها، واستشراف ما ينتظرها من متغيرات.

أما الدراسة الثالثة، فدراسة الباحث محمد فاضل المشلب، وعنوانها: "البيئة ظهورا شعريا، مقاربة نقدية في أشعار طالب عبد العزيز"[٢]، وهي من الدراسات العلمية الجيدة، ولكن ليس في مجال النقد الأدبي البيئي؛ لكونها لا تدخل ضمن نطاقه، وأعتقد أن المجلة أقحمته إقحاما في ملف النقد البيئي، الذي أعدّته في هذا العدد كما سبق وبينّا، وذلك لأن الباحث عالج جمالية المكان في مجموعة الشاعر العراقي طالب عبد العزيز" طريقان على الماء، واحد على اليابسة"، وانتهج في مقاربته منهجية جمالية تأويلية، فابتدر يحدثنا عن قيمة المكان وسيرته في القصائد التي أنتجت نصوصا مكانية –على حد قوله- كما تناول خصوصية المكان وآلية القناع بوصفها أداة تعبيرية عن المكان في المجموعة[٣]، ويدلف بعد ذلك ليحدثنا عن لغة المجموعة، والرصف البلاغي للجُمل، حتى انتهى من بحثه وسجّل نتائجه، وقد جاءت أول نتيجة خرج بها تدحض نسبة بحثه لدراسات النقد البيئي، يقول: "تَبَيَّنَ تعلق البيئة بوصفها مفردة جمالية قائمة في وعي الشاعر"[٤]، وتأسيسا على تلك المقولة فدراسة "المشلب" لا تقع تحت شرط النقد البيئي، الذي لا يهتم برصد جماليات التعبير عن البيئة فقط، وإنما يعنى بالتفاعل تأثيرا وتأثرا مع المنظومة

(١) نضرب نماذج لهذه الأخطاء؛ ليستبين القارئ مقدار الفاجعة:ص١٠١٦ (باعتباره موضوع) والصواب: موضوعا، ص١٠٢٠(أن نكون أشباه للآخرين) والصواب: أشباها. وص٩٨٠ (قد يكون الغرب سبب رئيسي) والصواب: سببا رئيسا. وينظر أيضا الأخطاء في صفحات:١٠٢٠، ١٠٠٨، ١٠١٢، ٩٩٧، ٩٨٩، وغيرها. ينظر التوثيق السابق. وأشير إلى أمر مهم، أن ما ذكرتُه ليس من باب التشنيع بالباحثة أو المجلة أو حتى المحكمين- وهم مجهولون بالنسبة لي- وإنما هي آفة عامة مع التسارع الشديد في عدد المجلات العلمية، وتقديم الربح المادي الناتج عن نشر البحوث على المحتوى العلمي، كما أن خروج البحث للقراء يرفع عنه صفة تملك صاحبه له؛ إذ يصير مادة للقراءة والنقد والمراجعة العلمية من قِبل الآخرين.

(٢) ينظر عدد (١٠٢) مجلة فصول، سبق توثيقه، والبحث في المجلة: ص(٤٢٣-٤٣٦) .

(٣) ينظر : ص٤٢٦.

(٤) البحث ، ص٤٣٣.

البيئية، وقد رصد الباحث جانبا واحدا هو تأثّر الشاعر بالبيئة، لكنه لم يحدّثنا عن أثر البيئة في الشاعر وتمثلاتها والوعي بقيمها في المجموعة الشعرية، كما كان رصده للجمالي من أجل إظهار القيم الجمالية لا القيم البيئية، ولم يتطرق إلى كشف الأنساق والسياقات المستترة وراء هذه الجماليات، بوصفها تعكس وعيا بيئيا في النص، أضف إلى ذلك أمرا مهما، وهو أن قائمة مصادر البحث ومراجعه خلت تماما من مصادر النقد البيئي ودراساته(١)، وهو ما يؤكد رؤيتنا بأن الباحث له وجهة أنجز بها بحثه، لكن المجلة –على الأرجح– وجّهَتْ بحثه وجهة بيئية، وهو أبعد ما يكون عن ذلك.

وإذا كانت الدراسات الثلاث السابقة قد شابها إشكال في المنهجية، التي قاربَت بها النصوص التطبيقية التي اشتغلت عليها، فإن دراسة رائدة –حسبما نراها– قد سلمت رؤيتُها المنهجية، وهي دراسة عبد الحميد الحسامي (الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي)، فإننا نلفى طرحا منهجيا رصينا، على الرغم من أنها أول دراسة تتّبِع منهج النقد البيئي، وهو ما سجله الباحث بقوله يصف دراسته: "إنها لم تُسبق بدراسة تطبيقية لنص إبداعي"(٢)، وأول سمات الرصانة في البحث اختياره للنص البيئيّ المناسب، للكاتب اليمني الروائي محمد عبد الوكيل، الذي تتوافر له شروط النص البيئي، ومنها إعلاء قيم التوازن، واسترجاع جماليات القرية، واستنطاق عناصر الكون، وهدم مركزية الإنسان وسيادته، وغير ذلك. وارتكز الحسامي في منهجه على اتجاهين، عنى في الأول بتناول البنية الرؤيوية، التي رصد فيها رؤية الكاتب لقضايا البيئة داخل عمله، والاتجاه الثاني درس فيه البنية الفنية، فتناول تشكيل المعجم اللغوي، والوصف، والمكان، والشخصيات، وهو في كل ذلك يوجه تحليله لاكتشاف النموذج البيئي في توظيف كل عنصر من هذه العناصر داخل الرواية، وبالإضافة إلى ذلك كله فقد درس التناص، وأشار إلى ما أسماه (التناص البيئي)، الذي أصّلنا له سابقا في هذا البحث.

وعلى الرغم من تواتر دراسات عديدة جاءت بعد هذه الدراسة، فإننا نعدُّها من أسلم الدراسات النقدية منهجا، وأدقها توظيفا لقيم النقد البيئي، لكونها مزَجَتْ في التحليل بين البيئي، والجمالي، والأخلاقي، في تكامل نسقي واحد. وسوف نعمد إلى الإفادة من طرحها المنهجي في الممارسة التطبيقية لبحثنا هذا.

(١) يراجع مصادر البحث وهوامشه :ص٤٣٣–٤٣٦.

(٢) الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، سبق توثيقه، ص٢٤٧.

المبحث الثاني: القيم البيئية في قصة "رأيتُ النخل".

أولا: بين يدي القصة، وهل توافرت لها شروط الأدب البيئي؟

في غلافٍ أمامي وخلفي أخضر تقع مجموعة (رأيتُ النّخل) القصصية للقاصة والروائية المبدعة رضوى عاشور[١]، الصادرة عام ١٩٨٩م. وقد حمَلتْ المجموعة عنوان القصة، التي احتلت في الترتيب آخر قصصها، وفي تقاطع عنوان المجموعة مع القصة، وإنزالها في الترتيب لتكون آخر ما يقرأ المتلقي دلالة على أهميتها، وكأن الكاتبة تريد أن تجعلها تلخيصا لرؤيتها في المجموعة كلها، كما تريد أن تجعل ما تحمله من قيمٍ آخرَ ما يعلُق بذهن القارئ.

وتدور الأحداث في القصة حول شخصية فوزية السيدة الريفية، التي نشأت تحتفي بالزرع احتفاء استثنائيا، رغم أنها لم تمتهن الفلاحة يوما، لكنها ولدت محاطةً بالزروع في كل مكان. وتظهر فوزية للوهلة الأولى في القصة تسكن غرفة صغيرة بشُرْفةٍ واحدة في مدينة القاهرة، وقد تركت القرية بعد موت أمها وأبيها وأخويها، واستقلت تلك الغرفة بالقرب من محل عملها، وبرغم ذلك لم تنقطع عن القرية، فهي دائمة الذكر لها، كما لم ينقطع عنها أهلُها، فعمّتُها كانت دائما ما تزورها حاملة معها الزروعَ التي تحبها فوزية، وتَمْرَ النخيل من نخلة أبيها، وفروع الصبارة التي ورثتها عن أمها.

والقضية المحورية في القصة تدور حول موقف المجتمع بجميع طبقاته من النباتات والزروع، فالأغنياء يستخدمونها في الزينة، والطبقة المتوسطة (زملاء وزميلات فوزية في العمل) ينفرون منها؛ لاهتمامها بالزرع، ويعدّونها مجنونة لشغفها بالنباتات، أما الطبقة الدنيا فيمثلها (البقال متولي، وأم سليمان، وأطفال الحي من جيران فوزية) وهؤلاء جميعا يُعادون النباتات بشكل مُريع، ويفسدون زروعها، ولم تجد مواساة من قسوتهم في التعامل معها إلا عند عامل المشتل عم محمد، الذي كانت تناديه (أبويا محمد) وقد شاركها حبَّ النباتات والعناية بها، وبرغم ذلك لم تستطع فوزية مجابهة الواقع المحيط بها، الساخر منها، مما أدَّاها في النهاية إلى الهروب من هذا الواقع الأليم إلى أحلامها، التي كانت ترى فيها الحقول علامة على الصفاء، وكان أجملَ ما رأت في أحلامها النخلُ، الذي يمثل الأملَ في حياة أفضل، وهو ما ختمت به القاصةُ قصتها.

وبهذا الاحتفاء القصصي بالزروع والنباتات، ونشر ثقافة الاخضرار في المجتمع، ينغمس هذا النص القصصي في الأدب المُعبِّر عن البيئة، فقد طرح النص مجموعة من القضايا البيئية،

---

(١) رضوى عاشور: رأيت النخل، سلسلة فصول مختارة، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع(٦٧)، ١٩٨٩. وتقع القصة في الصفحات من (٨١-٩٠).ورضوى عاشور قاصة وروائية وأستاذة جامعية مصرية، وهي أشهر من أن نعيد ذكر سيرتها هنا على نحوٍ مفصّل. تعد ثلاثية غرناطة:(غرناطة- مريمة- الرحيل) والطنطورية، من أشهر أعمالها الروائية، أما الجانب القصصي، فلها مجموعتان قصصيتان فقط، الأولى "رأيت النخل"، والثانية :" تقارير السيدة راء"، وقد فازت الكاتبة بعدة جوائز أشهرها: جائزة سلطان العويس٢٠١٢، وكفافيس في الآداب ٢٠٠٧م. وقد توفيت سنة ٢٠١٤.

من أهمها: التباين الثقافي بين الريف والمدينة في تعاملهم مع البيئة والنباتات، تصدير ثقافة التعاطف مع البيئة الخضراء، عرض مشكلات التعامل مع البيئة، وأبرزها الثقافات المنتجة للتشويه البيئي، وهي في الأصل أمراض اجتماعية تمثَّلتْها القصة وعرضت لها، وجعلت المادة التي تحكم مجتمع المدينة سببا رئيسا في نشر هذه الثقافات المعادية للبيئة، والأهم من ذلك كله أن القصة تحمل من أولها همّا بيئيا، ونية مُبَيَّتة لتربية الضمير البيئي في المجتمع، مما يجعلها واقعة ضمن النصوص البيئية، وسوف نتلمس الرؤى البيئية في القصة من خلال التحليل الآتي.

ثانيا: القيم البيئية في القصة (رؤية القاصة للبيئة).

(١) بناء ثقافة بيئية جديدة.

يقول بول روبنس Paul Robbins:" تقدم الإيكولوجيا العميقة أخلاقا تؤكد على قيمة الطبيعة في ذاتها، وبذاتها، ولذاتها"[(١)] هذا المبدأ المهم من مبادئ الإيكولوجيا البيئية، قد تحقق في القصة بشكل مُبهر، حين عمدت الكاتبة إلى تعديل سلوك المجتمع وعاداته السيئة في امتهان البيئة، من خلال مواقف أَدَارَتْها شخصية فوزية مع محيطها، ومن هذه العادات المتأصلة أن (نبات الصبار) المُشْتَهر عنه أنه من النباتات القبوريّة، التي تُزرع على القبور، وتُلازم الموتى، قد وظّفته الكاتبة من خلال شخصية فوزية، فجعلته في القصة "ثيمة" مُفعَمة بالحياة، ولنتتبع ذلك في هذه المواضع من القصة، تقول: "**ساعتها تذكرت زهرة الصبار التي حَمَلَتْها لي عمتي...وكنت قد وضعتها بجوار الباب**"[(٢)]، وقولها: "**وأنا أذكر أن بيتنا في القرية كان على سطحه نعناعة، وفي قاعه صبّارة، وبابه نخلة**"[(٣)] وقول عمتها فاطمة حين جاءت لزيارتها: "**أحضرتُ لك رغفانا خبزتُها، وتمرا من نخلة أبيك، وكسرت لك فرعا من الصبارة التي في دارنا**"[(٤)] هذه المواضع جميعا جاءت فيها الصبارة (الزهرة) مزروعة في بيئة نابضة بالحياة، وتبوّأت أمكنة مأهولة بالحواس التي تلحظها قبل الناس؛ حتى لا تشعر بالوَحْشة، فوُضعت إلى جوار الباب، وفي قاع (وسط) بيت العائلة، وحُملت كهدية من بيئة الريف مع العمة إلى القاهرة حيث بيت فوزية، بل ورد في القصة أن هذه الصبارة سبب لعمار الدار؛ ولذلك أخذت العمة فرعا منها أهدته لها أمها، ثم أخذت هي من صبارتها فرعا أهدته لفوزية، وبذلك تتناسل الصبارة في البيوت تناسلا يدل على النماء والبركة في كل مكان تحل فيه، تقول عمتها فاطمة: "**الصبارة التي في دارنا كسَرَتْهَا لِي أمِّي من صبارتِها يومَ تزوجتُ وانتقلتُ إلى بيتِ زوجي، هذه إذن صبارة**

(١) بول روبنس، وآخران: البيئة والمجتمع مقدمة نقدية، تر: خالد مفتاح، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧، ص١٣٤.

(٢) رأيت النخل: ص٨٢.

(٣) رأيت النخل: ص٨٣.

(٤) السابق: ص٨٤.

جدتك، وجدة جدتك، ربنا يبارك فيك يا فوزية يا بُنَيَّتِي ويحفظ لك الدار عمار"[١] ونلاحظ أن هذا الاحتفاء بالصبارة احتفاء غير موجه، وبلا غرض نفعي؛ إذ إن نبات الصبار معروف بأنه غير مثمر، كما أن صورته ليست بالصورة البهية، التي تدفع فوزية وعمّتها أن تتخذها للزينة مثلا، فهو اهتمام مُبرّأ من المنفعة، لكنه في الوقت نفسه تناغم مع البيئة ومفرداتها ممثلة في تلك النبتة، التي تعطي شعورا نفسيا بالعمار، الذي ترجوه العمة لابنة أخيها؛ وكأنها تشير– في كناية خافتة– إلى أمنيتها بأن تُرزق فوزية بالزوج والذرية.

ولم يسقط هذا الحس البيئي الحيوي في تصوير الصبار في أيٍ من تفاصيل القصة، بل على العكس، فقد نأت به الكاتبة عن أن تربطه بذكر الموت، فحين جاء فوزية خبرُ موت ابن عمّها، قالت: "**فلما أكّدوا الخبر طلبتُ منهم أن ينتظروا؛ لأصحبَهم لتقديم واجب العزاء. رأوني أُقرفص أمامَهم، وأملأ علبةً فارغةً بالطين، وأرشق فيه عودَ ريحان**"[٢]هذه القيمة المهمة في التحول بالثقافي المضاد للبيئة من خلال عادات موروثة، يعد من أهم القيم الرومانسية التي يعلي النقد البيئي من شأنها، وتضطلع هذه القيم بدور مهم، وهو خلق علاقات وطيدة بين الإنسان والمنظومة البيئية.

(٢) الإعلاء من قيمة الانتماء للعلاقات الطبيعية لا الاجتماعية في القصة.

وهو من أهم الإجراءات التي حددها مايكل برانش لأدب بيئيّ ناجح[٣]، وقصة" رأيت النخل" بُنيت العلاقةُ فيها على التفاعل بين البشري (فوزية، أسرتها، عمتها، عم محمد عامل المشتل) والمنظومة الطبيعية (النباتات، والزروع) بشكل معماري مميز، وإنّ أكثر ما يلفت الانتباه في القصة أن (فوزية) انتقلت بهذا الشغف الزراعي إلى مكان لا يحتفي بالعلاقات الخضراء، وهو مدينة القاهرة؛ ولذلك كانت أفعالُها البيئيةُ داخلَ القصةِ مُستهجنةً كلها.

ومن مظاهر الانتماء للمنظومة الطبيعية في القصة، حرص (فوزية) على أن تكون محاطة بالنباتات والزروع، وحزنها الشديد أنّ بيتها المكون من غرفة واحدة ذات شرفة ضيقة، لا يتسع للمزيد من النباتات التي تعتني بها، تقول: "**كنتُ أتمنى أن يكون بيتي فسيحا تحيط به أرضٌ أزرعها، ويحزنني أنه يتكون من حجرة واحدة، وأن شرفته الوحيدة ضيقة إلى هذا الحد، ولا تتسع لكل ما أزرع**"[٤] ويمتد هذا الانتماء في القصة لمدى أبعد، وذلك حينما تتفقد فوزية علاقتها بمفردات المنظومة الطبيعية، وتحرص على التناغم والامتزاج بها؛ على الرغم من تعرضها للتهكم الشديد ممَّن أحاط بها من البشر، ولكنها كانت تُعلي من شأن هذه العلاقات، ولا

(١) نفسه: ص٨٥.

(٢) نفسه: ص٨٣.

(٣) ينظر: مايكل برانش، النقد الإيكولوجي، ص٤٦.

(٤) رأيت النخل: ص٨٧.

تأبه بفساد العلاقات الاجتماعية، ومن ذلك نزولها في البرد الشديد لتفقد البراعم الخضراء على فروع الشجر، وهو ما عرَّضها لسخرية زميلها، تقول: "**كنت أبحث عنها عندما رآني الزميل، قال: فوزية، ماذا تفعلين في الشارع في هذا البرد الملعون، كل الناس تلزم بيوتها؟ قلت: أبحث عن البراعم! فهتف: والله إنك مجنونة يا فوزية**"(١) ولم تكن فوزية تصنِّف علاقتها المشوهة بالناس من حولها أو تصفها، ولكنها كانت حريصة كل الحرص على وصف علاقتها مع النباتات والبيئة، فبعدما رجعت من دون أن تعثر على البراعم، قالت: "**وفي نهاية يوم قضيتُه أبحث عدتُ إلى بيتي خائبةً أتساءل إلى متى؟**"(٢) فوصف (الخيبة) هنا لم يكن لفَقد وظيفة، أو فوات ترقية مما اعتاد الناس أن يصفوه بالخيبة، وإنما كانت خيبتها متمثلةً في عدم عثورها على البراعم في فروع الشجر، وهو ما يعكس مدى حرصها على علاقتها بمفردات البيئة من حولها. وقد تكرر أيضا وصف العلاقة بالمنظومة الطبيعية حين جاءت العمة لزيارة فوزية في القاهرة، تقول: "**وضمتني إلى صدرها وبكت على خراب بيتنا، الذي انطفأت نارُه وجفَّت صبّارتُه**"(٣)، فخراب الدار يعود لجفاف الصبارة، كما أن عمارها مرهون ببقائها ناضرة.

وفي مشهد سردي آخر تنتصر فوزية لعلاقتها المميزة بالنباتات والزروع، حينما اتهمتها زميلتُها في العمل بأنه لا يليق بها أن تكون أظافرها بهذا الشكل الذي تظهر من تحته بقع سوداء، فتردُّ فوزية: "**هذه ليست وساخة، إنه طين متخلف من الزرع الذي أزرعه**"(٤)، وهو ردٌّ يشي بمدى قوة الارتباط بالنباتات، التي صارت جزءا من مكونات شخصيتها، ولا ترى أيّا من آثاره الملتصقة بها أمرا يشينها أو يعيبها.

(٣) نوستالجيا الذاكرة الخضراء.(قيمة أن تحمل بداخلك ذكرياتٍ خُضر)

من الأمور المقررة نفسيا أنه :"إذا كانت رؤية الشخص لماضيه وخبراته رؤية مغتبطة يختلط فيها الإحساس بالإنجاز والنشوة، فإنه ينظر لحياته على أنها جديرة بالبقاء والاستمرار"(٥)، وفي القصة تحقق هذا الشعور النفسي من خلال حنين (فوزية) للماضي الذي يحمل ذكرياتٍ خضراء، ووصف "خضراء" هنا نشير به إلى صور علاقتها بالبيئة، وكانت هذه الذكريات هي وسيلتها الأنجع في مقاومة قسوة العيش في المدينة، التي انتقلت إليها بعد وفاة أفراد أسرتها، وقد رسم هذا الحنين لماضيها في القرية صورة تتفوق فيها بيئة الريف على بيئة الحضر، وقد تكررت المشاهد التي صورتها الكاتبة بلغة شعرية رومانسية، وأجرتها على لسان فوزية، التي أخذتْ

(١) رأيت النخل: ص٨١، ٨٢.

(٢) نفسه : ص ٨٢.

(٣) نفسه: ص٨٤.

(٤) نفسه: ص٨٥.

(٥) د. عبد الستار إبراهيم: الإنسان وعلم النفس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥، ص١٤٥.

تسترجع هذا الحنين، واضعة حاضر المدينة القاسي أمام الماضي الجميل في الريف، تقول: "**كان أبي يوصي أخويّ بالنخل، كما كانت أمي توصيني كل فجر وهي تلقي تعليماتها اليومية...أن أسقي النعناعة، عندما كنت أنسى كانت تغضب ويعلو صوتُها موبِّخة: حرام عليك يا بنيتي، هذا فأل سيئ، ربنا يمد في عمر أبيك ويبقى الدار عمارا**" ثم تقول في وصف ما آلت إليه حياتها :"**حتى أخواي ذهبا، فأصبحت أنا- بعد أن أقمت في القاهرة- كالمقطوعة من شجرة**"[١]، هذه الكناية التي حملتها عبارة(المقطوعة من شجرة) تلخّص شعور فوزية بالموت بعد انتقالها للعيش في القاهرة، كالغصن الذي بُتِرَ عن شجرته الأم، فإنه يجف ويموت، وهو انتصار للريف بوصفه يمثّل الطبيعة البكر الأولى، التي احتضنَت فرحة فوزية بالعيش في كنف أسرتها.

والأمر نفسه تكرر في المقارنة بين تذكُّرها لبيتها في الريف؛ حيث كان على سطحه نعناعة، وفي وسطه صبارة، وببابه نخلة[٢]، فتعمّه الخضرة من كل الجهات، مقارنة بوصفها لمكان العمل في المدينة: "**المكان الذي نعمل فيه معتم وقديم، تساقط طلاءُ جدرانه، ونسج العنكبوت خيوطه في الزوايا، وعششت فيه الحشرات**"[٣] وهذا المكان المشوهة بيئتُه كان يدفعها في كل مرة إلى تجميله بالنباتات والأزهار، كما دفعها أيضا للاحتماء بذكرياتها الخضراء من أثر هذا التلوث الذي عمَّ حواسّها.

(٤) سَعة المكوّن العلمي عن النباتات والزروع في القصة.

وهو من مظاهر عناية الكاتبة بالبيئة، فقد طرحَتْ على لسان (فوزية) ما يدل على سعة تبحُّرها في كل ما يخص النباتات، وقد تناولت القصة وصفا تفصيليا لزراعة الريحان، والصبار، ونواة التمر، وكيف أنها تأخذ النواة فتضعها أولا في قطنة مبللة لأيام أربعة أو خمسة، وتتعهدها حتى تنتفخ وتلين، ثم إذا لمست بيدها طراوتها أخذتها فدفنتها في الطين، وغمرتها بالماء، وتعهدتها بالرعاية حتى تنمو[٤]. وهذا الجانب العلمي في القصة رغم أن الكاتبة قد أدته بلغة أدبية شيقة، لكنه بقي علميا، مما يعني أن الكاتبة تغرس في نص أدبي توجها علميا لتحسين البيئة، فلو أن قارئا أخذ ما وصفتْ به طريقةَ زراعة نوى التمر، لمَا اختل هذا الوصف مطلقا عن وصف أي كتاب علمي يتناول زراعة النخيل وفسائله، وتلك قيمة مهمة تحققت في القصة، تجعلها قابعة في قالب بيئي مميز.

(١) رأيت النخل: ص٨٤.

(٢) ينظر: السابق، ص٨٣.

(٣) السابق: ص٨٥.

(٤) ينظر: السابق، ص٨٦.

(٥) نبذ الفلسفة البراجماتية وثقافة الاستعلاء على البيئة.

تأتي رعاية القصة لفكرة نشر الثقافة الخضراء في مجتمع المدينة، من خلال تشجير البيئة المحيطة، والعناية بالنباتات وزرعها- مبرأةً من النفعية، وقد تجلى ذلك في الفعل البيئي الذي تتحرك من خلاله فوزية، فهي مثلا لا تزرع الصبار لتنتفع بزيوته، ولا تجمع نواة التمر لتبيع الفسائل الناتجة عنها حينما تكبر، ولا لتتاجر في النباتات العطرية من وراء زراعتها للريحان في الأصص التي تملأ حجرتها، وهو ما جعلها تتحرك فيما أسميناه من قبل "الإيكولوجيا العميقة" فهي في منظومة الطبيعة أو البيئة، مثلها مثل النخلة والريحانة والصبارة، لها حق الوجود والتفاعل مع محيطها من دون استغلال يضر بها، أو استعلاء يُهمّشها.

لكن القصة في الوقت نفسه تعكس لنا سلوكات بشرية لا تمثل تلك الفلسفة الإيكولوجية، التي تنادي بها الدراسات البيئية، تلك السلوكات التي ترى في فعل (فوزية) تجاه النباتات والزروع شذوذا يستدعي السخرية. وقد أدارتْ "رضوى عاشور" هذا التخلف الأخلاقي في القصة تجاه المنظومة البيئية والاستعلاء عليها بشكل جمالي غير مباشر، وهو أدعى لتقبل القارئ له، وإقامة حوار هادئ حول ما تمثَّلته القصة من قضايا في هذا الشأن، ومن ذلك:

- موقف زملائها وزميلاتها في العمل، وهي تركض وراء كل نواة تَمْرٍ تلفظها أفواهُهم؛ لتجمعها في جيبها العميق؛ تمهيدا لزراعتها ورعايتها بعد ذلك، فكان ردهم أنْ قالوا: "**فوزية المجنونة، التي تلقي بنفسها على نوى التمر كأنه جنيهات الذهب**"(١) تلك النظرة الاستعلائية تعزل الإنسان عن محيطه، وتضع على عينيه غشاوة فلا يبصر إلا ما يحقق له المنفعة المادية.

- موقف متولي صاحب البقالة، الذي كانت فوزية تأخذ من عنده بعض صفائح الجبن والزيتون الفارغة؛ لتزرع فيها النباتات، فقد منعها أخذَ هذه الصفائح؛ لكونها لا تشتري من عنده ألوان الصابون المعطر والجبن الفاخر؛ رغم أنها أوضحت له أن راتبها لا يسمح باشتراء هذه الأشياء(٢). وهنا تظهر النظرة المادية للتاجر، وأنانيته المفرطة في بحثه عن منفعته فقط، دون النظر إلى محيطه، أو التفاعل معه بشكل أخلاقي.

- ردة فعل "أم سليمان" حين اشتكت فوزية إليها من أولادها الذين يتكاتفون مع أطفال الحي في إفساد زرعها، واقتلاعه وكسر الأصص، فكان ردُّ فعلها: "**لعّبتْ أم سليمان حاجبيها، وأخرجت صوتا متحشرجا من حلقها رافقته حركة بذيئة بإصبعها الوسطى، وقالت: مبروك عليك (زرع) يا (أم زرع) تعيشي وتجيبي**"(٣) إن هذه الحيزبون "أم سليمان" ترى في فعل فوزية أمرا

(١) رأيت النخل: ص٨٦.

(٢) ينظر: السابق، ص٨٧.

(٣) السابق: ص٨٨.

شاذا، وتلمّح في كلامها إلى أنه كان الأوْلى بها أن تتزوج وتنجب وتربي أولادا كُثُرا كأولادها، ولا تعبأ بتفاهات الزروع، وقد بدا أنها لا تعلم من معاني الزرع سوى زرع النُّطف في الأرحام ! ولعل وصف الكاتبة لردة فعلها يجعل منها معادلا موضوعيا للبيئة المصنوعة المقززة، وهي البيئة التي تضم، أيضا، إلى جانب أم سليمان وأولادها، زملاءَ العمل، وعم متولي البقال، في تمثيل النظرة النفعية المستعلية على البيئة.

(٦) فلسفة الاستدامة البيئية.

وقد انعكست في نهاية القصة من خلال بروز الأمل في حياةٍ بيئية أفضل، حينما أتتْ فوزيةَ امرأةٌ كانت تسكن في الشارع نفسه، وقالت لها: "**رأيت أصص الزرع في الشرفة**"(١) وقد طلبت منها أن تعلمها، فكان رد فوزية: " **فأريتُها كيف. أهديتها عود نعناع كنت قد زرعته، ثم جلسنا وتحدثنا**"(٢)، وهو آخر ما ختمت به الكاتبة قصتها، ومن خلاله يبدو أن الكاتبة تمهد لفكرة الاستدامة، وأن تغذية النظر بمنظر الزرع في الشرفات كفيل بنشر ثقافة بيئية مستدامة، وهو ما يعني إيقاظ الضمير الجمعي، وإحداث وعي مجتمعي من خلال هذا الفعل البسيط.

– المبحث الثالث: المكون الفني وجماليات تشكيل البيئة في القصة.

ما طرحناه في المبحث الثاني من رؤية الكاتبة لقضايا البيئة في القصة، لابد أن يحظى بمؤازرة فنية، تسهم فيها لغة الأدب وجمالياته في الارتفاع بالخطاب الأدبي البيئي لاستكمال وظيفته في خلق وعي قرائيّ بالمنظومة الطبيعية وعناصرها المختلفة، فلا تكون الجماليات بمعزِل عن رؤية الكاتبة، وإنما تعمل المنظومة الجمالية في تعضيد المنظومة الطبيعية في النص الأدبي، وذلك على أساس أن الأديب "يلجأ إلى إعادة بناء هذا العالم وفق رؤى مختلفة وسياقات فنية جديدة"(٣) وهو ما سنحاول أن نطرحه في هذا المبحث.

(١) اللغة.

جاءت لغة "رأيت النخل" عالية كالنخل في بلاغتها السردية، لها امتدادات تثير الفكر برغم بساطتها، ثم إنها لغة شعرية في وصفها للبيئة، ولها خصائص أخرى نُجملها في النقاط الآتية:

– من المعلوم أن الطبيعة لو تمثَّلت بشرًا لكانت امرأة، ولا يمكن تخيلها رجلا، كما يقول مايكل زيمرمان: "النساء أكثر تناغما مع الطبيعة من الرجال"(٤)، ولقد جاء المعجم اللغوي في القصة زاخرا بهذه الدلالة، فالأنثى (فوزية) بطلة القصة، والنخلة الرمز الذي يتحرك فيها مؤنث،

(١) نفسه: ص٩٠.

(٢) السابق: ص٩٠.

(٣) فاطمة الشيدي: المعنى خارج النص، أثر السياقات في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى، دمشق، ٢٠١١، ص٨٨.

(٤) الفلسفة البيئية، مرجع سابق، ٣٨٥/١.

والنباتات التي تزرعها فوزية جاءت مؤنثة: (الصبارة، الريحانة، النعناعة، الياسمين، نواة النخل) بالإضافة إلى شخصيات:(الأم، والعمة فاطمة، والجدة، وجدة الجدة) والمكان الأثير لديها مؤنث(القرية)، وهذا المعجم النسوي يضفي تناغما حميما في تماسك كل هذه العناصر معا داخل المنظومة الأكبر، المنظومة البيئية.

– شعرية اللغة من الخصائص الجمالية المعبرة في القصة، وهو ملمح جمالي يسهم في انتباهة المتلقي لصورة البيئة في النص القصصي؛ خاصة أن "رضوى عاشور" ألبسَتْ لغتها السردية جماليات الشعر في المقاطع التي تحدثت فيها عن البيئة، تقول في وصف النخل: "**مرة واحدة رأيتُ النخلَ غابةً في السَّحَر، ولم تكن الشمسُ قد أشرقتْ بعد، ولكنها كانت على وشك، فتخضَّب الأفق البنفسجي بلون الحناء. رأيت النخلَ مستقيمَ القدّ، شاهقَ الطول، عميما، ورأيت وجوه أهلي فيه...**"[(١)] وقد تكررت هذه اللغة الشعرية في الحديث عن حقل القمح، وحقل البرتقال، والزروع داخل القصة، وهو ما يصنع رومانسية بيئية في التعبير السردي.

(٢) جمالية التناص.

تعالق النصوص داخل القصة له عدة وظائف نسقية وثقافية مهمة، نذكر منها:

– التعالق المباشر مع النص الديني: فرغم أن القصة القصيرة الناجحة لابد أن تكون أبعدَ ما تكون عن الوعظ، الذي تمثله أول ما تمثله نصوص الدين، فإن الكاتبة استخدمت التناص الديني الصريح؛ لتدعيم الدور الأخلاقي للبيئة، ومن ذلك قولها وهي تتناول تاريخ النخلة: "**النخلة شجرة مباركة أنعم الله بها على عباده، وكرمها بذكرها في القرآن، وأن النبي صلوات الله عليه، قال: أكرموا عماتكم النخل. وأنه سّمى النخل عماتنا؛ لأنها خلقت من فضلة طينة آدم**"[(٢)] فالنص الديني بما يملك من قداسة وحُجيّة قادر على صناعة وعي داخلي، وهو ما فعلته الكاتبة وهي تؤسس لتاريخ النخلة في بداية القصة.

– التعالق غير المباشر: وقد حقق التناص، هنا، وظيفة مهمة في إبطال مركزية الإنسان، التي طالما تحدّثت عنها الفلسفة الإيكولوجية، وقد استحضر السرد القصصي في مشهد فوزية حينما جاءها خبر موت ابن عمها، فإنها لم تذهب للعزاء إلا بعد أن غرست عود الريحان الذي كان في يدها، تقول: "**رأوني أقرفص أمامهم، وأملأ علبة فارغة بالطين، وأرشق فيه عود ريحان، وأثبته بالضغط المتكرر..**"[(٣)] وهو ما يستدعي حديث النبي□:" إن قامتِ الساعةُ وفي يدِ

(١) رأيت النخل: ص٩٠.

(٢) السابق: ص٨٣، ٨٤. وقد تكرر ذكر النخل في القرآن الكريم أكثر من مرة، منها قوله تعالى ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ﴾ النحل:(١١)، وكانت النخلة رفيقة مريم، عليها السلام، في محنة وضعها:﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مريم: (٢٥).

(٣) رأيت النخل: ص٨٣.

أحدِكم فسيلةً، فإن استطاعَ أن لا يقومَ حتى يغرِسَها فليغرِسْها"[١] لقد وظّفت "رضوى عاشور" التناص هنا، في إحداث قمة التوازن البيئي، فابن عمها مات (قامت قيامتُه) والريحانة لا تزال خضِرة نضِرة في يدها، ولو لم تَهمّ بغرسها قبل أن تنشغل بالسفر إلى العزاء، فسوف يذبل ثم يذبل فيموت، وهو ما يتماهى مع الوصية النبوية في الحديث، ففي آخر عمر الدنيا جاءت الوصية بإعمار الأرض وغرس الفسائل، وترك الأثر النافع.

– حقق التناص أيضا في "رأيت النخل" دلالة الرعاية البيئية التي شغفت بها فوزية، وقد بدا ذلك في وصفها لولادة نواة التمر، فقد أخذت تعُدُّ العدة، فتجمعه أولا من الأرض، ثم تضعه في القطن المبلل، وتتحسس طراوته، وهو ينتفخ ويلين، ثم تغرسها في الماء؛ منتظرة ولادة جديدة لفسيلة جديدة[٢]، هنا تبدو (فوزية) كالقَابِلة، التي تتحين الفرصة المناسبة لإخراج المولود من رحم أمه، وقد استدعى هذا المشهد قصة مريم، كما عبر عنها النص القرآني، فقد أوَت إلى نخلة فتشبثت بجذعها، والنخلة تراقبها وتمدها بالتمر والرطب الجَنِيّ؛ حتى ولدت عيسى، عليه السلام، يقول تعالى:﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[٣]، وبذلك فجّر التناص من خلال التعالق النصي المباشر أحيانا، وغير المباشر أحيانا أخرى، ضربا من التداخل الذي يعكس طبيعة فطرية في البيئة وهي أنها متداخلة أيضا، إلى جانب تحقيق جماليات أخلاقية تجاه المنظومة البيئية المعبر عنها في القصة.

(٣) جمالية المكان.

والمقاربة البيئية شديدة الاهتمام بالمكان، وترى – كما بيّنا في المبحث الأول– أن المكان لا ينبغي أن يكون مجرد خلفية غير فاعلة في النص الأدبي، بل ينبغي أن يكون الكاتب حساسا لمجموعة التفاعلات المتحققة فيه، وأن يكون الناقد– أيضا– لديه الحساسية نفسها، التي تمكنه من التقاط انعكاسات المكان على الذات[٤].

والمكان في القصة يتخذ أوصافه من خلال إحساس الكاتبة به، فيتحرك بين مكان إيجابي مفعم بالحيوية، تأنس إليه النفس، وتسكنه الذكريات، وهذا المكان في القصة اختص به الريف دون سواه؛ حيث كانت فوزية تعيش في كنف الزروع صباح مساء، فتذكر الصبار والنعناع

(١) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١م، ٢٩٦/٢. رقم الحديث (١٢٩٨١). وينظر: محمد بن إسماعيل البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٩٨٩، ص١٦٨، باب اصطناع المال، رقم الحديث(٤٧٩). والحديث صحيح، رواه أنس بن مالك، رضي الله عنه.

(٢) رأيت النخل: ص٨٦.

(٣) سورة مريم: ٢٥.

(٤) ينظر: مايكل برانش، ص٤٦، ٤٧.

والنخل، وحينما انطلقت إلى القاهرة نسيت؛ حتى ذكّرتها عمتها حينما زارتها: "**ذكرتني عمتي، ولما تذكرت زرعت، فقال الناس عني مجنونة**"(١) إذن فتذكُّر الريف كان سببا من أسباب عودتها للاهتمام بالزروع والنباتات. ويلاحظ هنا أن جغرافية المكان في الريف متسعة فضفاضة، تسرح فيه خيالات فوزية، التي ابتنت خيالا بيئيا روحيا منسجما مع النخل، الذي لم يرد له ذكر في المدينة، ولم تره فوزية في المدينة قط؛ رغم شغفها بجمع نواه، وإنما رأته فقط في حُلمها الأخير في نهايات القصة، وقد أوّلت رؤيتها للنخل في الحلم بالموت:" **لكن الصوت كان يتردد في غابة النخيل ساعة السحر، فقلت لنفسي:" أنت يا فوزية على الأعتاب فتهيئي**"(٢)، مما يعني أن غياب النخل عن المكان في المدينة معادل للموت، بالإضافة إلى أن جغرافية المكان في المدينة ضيقة كما جاءت الأوصاف دالةً على ذلك:(الحجرة ضيقة) و(الشرفة الضيقة)، وكذلك مكان العمل، وقد وصفته بقولها: "**وحتى المساحة المستطيلة التي أمام المبنى والتي نشير إليها (بالحديقة) يغطيها طفح المجاري، فلا نستطيع دخول المبنى أو الخروج منه إلا بالسير الحذر على خمسة أحجار**"(٣)، إن المساحة الفعلية للمكان في الواقع شيء، ومساحته في السرد داخل القصة شيء آخر، فالعامل النفسي هو المقياس، الذي تقاس به مساحة المكان بحسب الشعور الذي يتلبس الشخصية التي تحل فيه، وهو ما يمكن أن نسميه الجغرافيا النفسية. وقد عبّرت فوزية، من خلال هذا الشعور النفسي، عن مساحة الود التي تربطها بقريتها، وبنخلها العالي، وكيف كانت مكانا سريا، تأنس فيه روحها، و"يسع من الأحباب ألفا"، كما يقول المثل الريفي.

(٤) الشخصيات الخضراء، ونقيضها.

في القصة مجموعة من الشخصيات أكسبها وصف الكاتبة هذا اللون البيئي الأثير، وذلك لأنها ارتبطت بأفعال بيئية مؤثرة في رسم المشهد الجمالي في القصة، وهذه الشخصيات الخضراء ضمت :(فوزية، الأم، الأب، الأخوين، العمة فاطمة، الجدة، جدة الجدة، عم محمد عامل المشتل) وقد استفاض الوصف في رسم شخصية الأم والأب والعمة، وعم محمد، في حين جاءت الشخصيات الأخرى بالتبعية مذكورة على لسان فوزية، ولقد جاءت أوصاف هذه المجموعة من الشخصيات في القصة مطبوعة بطابَع الطيبة، والتواصل، والود، والاشتراك في حب الطبيعة، والحرص على التواصل مع النباتات، كما فعلت العمة حينما قطعت فرعا من صبارتها؛ لتهديها إلى فوزية في القاهرة، وكذلك حين بكت وهي تخبرها بجفاف الصبارة بعدما رحلت تاركة بيتها في القرية.

(١) رأيت النخل: ص٨٥.

(٢) السابق: ص٩٠.

(٣) السابق: ص٨٦.

أما الشخصيات النقيضة لتلك الشخصيات الخضراء، فهي مجموعة في: (الزملاء والزميلات، عم متولي البقال، أم سليمان، الأطفال في الحي) وقد جاءت أوصافهم تنمّ عن: (السطحية، الكُره غير المبرّر لفوزية، عشق الجانب المادي من الحياة، عدم المبالاة بالطبيعة ومنظومتها البيئية، الأنانية المفرطة، البذاءة، والتبجُّح، الجهل والتخلف) ومن الملاحظ أن كل صنف تتلبس فيه أخلاقياته بحسب قربه من البيئة واحترام منظومتها من عدمه، ولذلك لا نستغرب أبدا حين نجد الحس العامي يصف مثل هذه الشخصيات بأنها:(بيئة) في إشارة إلى انقطاع الحس الأخلاقي في تعاملهم مع البيئة من حولهم؛ كما تشير إلى الأثر الكبير الذي تتركه البيئة في أخلاقهم. وقد ظهر لنا ذلك في القصة من خلال الوصف الدقيق المُنفّر لأم سليمان: "**ظهرت لي أم سليمان المرأة البدينة، ذات السن الذهبي، واعترضت طريقي، وهي تضع يديها على ردفيها الكبيرين**"[١]وهذا الوصف المنفر استتبع أن تكون أم سليمان فاحشة القول، بذيئة اللسان، صفيقة، وذلك في ردها على فوزية حينما اشتكت إليها أولادها الذين يفسدون الزرع، كما مرّ بنا.

وبالتدقيق سنلاحظ، أيضا، أن الصنف الأول (الشخصيات الخضراء) يتعامل مع مفردات البيئة بشيء من التقديس والتبجيل، فالأم والعمة فاطمة يرون أن في الصبار عمارا للديار، وكذلك فوزية التي كانت تنزل في جو الشتاء البارد للبحث عن البراعم الخضراء، والأمر نفسه عند الأب الذي كان يوصي أخوي فوزية بالنخل خيرا. في حين تأتي الشخصيات النقيضة متخذة موقفا سلبيا من النباتات والزروع، فالزميل يرى البرد ملعونا، ويسخر من فوزية، ويطلق عليها المجنونة، والزميلة تصف بقايا طين الزرع في أظافر فوزية بالوساخة، وترى أن ذلك لا يليق بها كموظفة، وكلهم يجتمعون على تحقير نوى النخل، وأم سليمان تنظر للنباتات والزروع بتهكم، وكذلك متولي البقال الذي يُعلي من قيمة المال على حساب البيئة، دون تفكُّر في العواقب، وكل هذه الأفعال وطرق التعبير عنها في القصة وتوظيفها يعد نجاحا لقدرة "رأيت النخل" على تمثيل الطبائع الإنسانية وَفقا لأبعادها الاجتماعية والثقافية، وكشف المستتر وراء كل نسق منها.

(٥) جمالية الضعف الأخضر في القصة:

لأبي تمام الطائي الشاعر العباسي المشهور بيت يَحسُن أن نتخذه مدخلا في تعريفنا للضعف الأخضر، يقول:

وضعيفةٌ فإذا أصابَتْ فُرصَةً قتلتْ، كذلِك قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ[٢]

(١) رأيت النخل: ص٨٨.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ط٥، ٢٠٠٦م ٣٠/١.

وإذا كان أبو تمام يقصد بالضعيفة في هذا البيت الخمر، وهي في أصل طبيعتها ماء، فإذا تمكنت من العقول فعلت ما يفعله الأقوياء؛ رغم ضعفها، فإننا نقصد بـ(الضعف الأخضر) هنا، ذلك الضعف النبيل الذي لا يُعَدُّ من الجُبن أو الخَوَر، وإنما هو ضعف منبعث من نفس قوية نبيلة، يمكنها في أي وقت أن تقتصَّ لنفسها، وتردُّ الصاع صاعين، ولكنها لنبل ما تحمله من أخلاق تأبى فعل ذلك، وهذا الوصف ينطبق على سلوك (فوزية) في تعاملها مع بيئتها والشخصيات المتنوعة، التي كانت تتفاعل معها، ومنها:

– حين همَّ زميلها بوصفها بالمجنونة حين رآها تنزل باحثة عن البراعم في برد الشتاء، فقال: "**والله إنك لمجنونة**"(١) ، فما كان من فوزية إلا أن علقت وقالت:" **كان يمزح، أذكر بوضوح أن صوته كان ضاحكا، وأن نظرة عينيه كانت دافئة وودودة**"(٢) وإذا كان هذا ردُّ فوزية، فإنه بإمكاننا من خلال لغة القصة أن نقول: إن الزميل لم يكن يمزح، وإلا لمَا أوردتِ القاصَّة جملتَه مؤكّدة بالقسم و(إن) و(اللام) واسميّة الجملة، مما يعني أن تسامح فوزية هو الذي هيّأ لها أنه كان يمزح.

– سلوك زملائها في العمل حين كانت تركض وراء (النوى)؛ لتجمعه من الأرض، وهم يسخرون منها، ويقولون: "**سمعتهم بأذني وهم يقولون: فوزية المجنونة التي تلقي بنفسها على نوى التمر كأنه جنيهات الذهب**"(٣)، فقد يبدو للقارئ أن فوزية هنا في موقف الضحية، لكنَّ العكس هو الصحيح، فهي تعلم ما يقال عنها، ولكنّها تتجاهله؛ شفقة عليهم لا ضعفا.

– وآخر هذه المواقف أن فوزية حين سبَّتْها أمُّ سليمان والدة الأطفال، الذين كسروا أصص الزرع، ضايقها صدور ذلك منها بشدة، فلما اشتكت إلى عم محمد عامل المشتل، ما كان منه إلا أن قال لها: أنْ تسبها، فقالت:" **فقلت له: سأحاول، وعدتُ إلى بيتي ولكني لم أكن واثقة أنني سأستطيع؛ لأن هذه المرأة كانت تخيفُني**"(٤).

إن التحليل الأمثل لظاهرة الضعف التي كانت تعتري (فوزية) في المواقف المختلفة داخل العمل القصصي، إنما يعود لكونها تطبَّعتْ بطابَع النباتات والورود والزروع، التي تعتني بها وتحبها، أو بتعبير آخر صارت جزءا من المنظومة البيئية، فبيئتنا رغم قوتها الشديدة؛ فإنها تتلقى الطعنات والإساءات من البشر والمؤسسات يوما بعد يوم دون رد الإساءة بالإساءة، وإن كان الانهيار في مثل هذه الحالة حتما سيكون النهاية الطبيعية للمنظومة البيئية، إنْ لم تتغير سلوكات

(١) رأيت النخل: ص٨٢.

(٢) السابق: ص٨٢.

(٣) السابق: ص٨٦.

(٤) السابق: ص٨٩.

البشر، تماما مثل (فوزية) التي أوشكت على الانهيار في حلمها، الذي تهيّأت فيه للموت؛ لعدم قدرتها على تحمل المزيد من جهل المحيطين بها.

وقد فتحت "رضوى عاشور" نهاية القصة على أملٍ جديد، حين جاءتها جارتُها لتعلّمها كيف تزرع؟ وبذلك تكون (رأيت النخل) بمثابة ترميز بيئي ينفتح على أكثر من تأويل، فقد يقصد بها اليأس من تغيير البطلة للواقع في المدينة، كما رأت في حلمها، فتكون بذلك معادلا موضوعيا للموت واليأس، وفي الوقت نفسه تحسرا على ما فاتها من حياة خضراء في كنف الريف، كما قد يقصد بها الأمل، وتمثله تلك الجارة، في طلبها أن تتعلم الزراعة.

إن فوزية التي انتقلت للعيش في المدينة قد حُرِمَتْ من رؤية النخل، وحين همّت بتصحيح بيئة المدينة بالتشجير والزرع– لاقت من المتاعب ما لاقت، وبهذا الوعي تكون القصة قد نجحت في التأثير البيئي، وإثارة قضايا بيئية تعاضَدَ في معالجتها الجانب الجمالي مع جوانب أخرى اجتماعية ونفسية ودينية وثقافية، ولكل جانب من هذه الجوانب أنساق لعل هذا البحث قد نجح في تفتيقها والكشف عنها.

الخاتمة ونتائج البحث

يستردّ النقد الأدبي موقعه المُهم في التعبير عن الوجود الإنساني وعلاقته بالمنظومة البيئية والطبيعية، وذلك من خلال هذا الفرع الجديد من فروعه، وهو النقدُ الأدبيّ البيئي، الذي جاء موضوعُ هذا البحث من منظوره، في دراسةٍ اشتملت على الجانبين: النظري والتطبيقي؛ لتتضاف إلى مجموع الرؤى والمضامين البحثية الوليدة في هذا النقد، لعل وعسى أن تُذهِب بعثراته؛ فتكثُر دراساتُه، التي ما زالت تشهد ضآلة واضحة.

وقد انتهينا في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج نُجملها فيما يأتي:

–لابد أن يكون النص الأدبي البيئي مُعْبِّرًا عن وعي شديد الحساسية بالمنظومة الطبيعية، مُتمثِّلا لقيمها وقضاياها؛

– النقد البيئي نقد يُبرز حضور البيئة في النص، ويدرس تعالق النصوص البيئية، ويجب أن ينفذ الناقد البيئي إلى ما وراء أوصاف الطبيعة في النص، ويكشف عما وراء النية الجمالية من وعي بيئي؛

– من أهم شروط النص الأدبي البيئي أن يكون كاتبه ذا همٍّ بيئي، وأن يعتنق أفكار الامتزاج بالطبيعة لا التعالي عليها، وأن تعلي النصوص الأدبية من شأن العلاقات الطبيعية لا الاجتماعية؛

– في الإحصاء الببليوجرافي الذي أعدَّتْه الدراسةُ جاء النص السردي أكثر حضورا في التطبيق النقدي البيئي من النص الشعري، وذلك لانغماس السرد أكثر في الواقع، في حين يُحَلِّق الشعر أكثر في الخيالات؛

– تُعدُّ دراسةُ" الضباب أتى...الضباب رحل، قراءة من منظور بيئي" للدكتور عبد الحميد الحسامي، المنشورة عام(٢٠٠٩) هي الدراسةَ الرائدةَ الأولى في دراسات النقد البيئي العربية، تنظيرا وتطبيقا؛

– يتبنى البحث مصطلح "النقد الأدبي البيئي" الذي ثبّته الدكتور محمد أبو الفضل بدران في عنوان دراستيه المُنجزَتين في النقد الأدبي البيئي، وقد التزمناه لوضوح دلالته، ورغبةً في توحيد المصطلح المُعَبّر عن هذا الفرع النقدي الجديد في الدراسات النقدية العربية؛

– تنامَتْ الدراساتُ العربيةُ في النقدِ البيئيِّ بشكل مُطّرِد بداية من عام (٢٠١٨م)؛

– اشتملت مجموعة من البحوث التطبيقية المُنجزة في النقد البيئي العربي على مشكل منهجي، تمثل بعضه في اختيار نصوص غير بيئية، وبعضه الآخر في البعد عن التحليل السياقي البيئي؛

– جاءت قصة "رأيت النخل" لرضوى عاشور حاملة لهمٍّ بيئي، متناولة لقضية مهمة تمثلت في نشر ثقافة الزرع في المدينة، وهو ما يجعلها محققة لشروط النصوص البيئية؛

– تحقّقت في القصة مجموعة من القيم البيئية، منها: تغيير الثقافات السائدة المشوهة للبيئة، وطرح بديل ثقافي مثمر؛

– طرَحتِ القصةُ فكرةَ الاستدامة من خلال التنبيه على تغذية النظر بثقافة زرع الشرفات وأسطح المنازل، وهو ما نجد له صدى واسعا الآن في أوربا –خاصة– لإحداث توازن بيئي؛

–حاربتْ القصة الفلسفة البراجماتية في التعامل مع الطبيعة، وفي الوقت نفسه حققت ما تنادي به فلسفة "الإيكولوجيا العميقة"، من خلال نقدها ثقافة الهيمنة البشرية على البيئة؛

– أعْلَتْ القصة من قيمة العلاقات الطبيعية على حساب العلاقات الاجتماعية؛

– تميزتْ لغةُ القصة بالشعرية والرومانسية في التعبير عن الطبيعة، وجاء معجمها اللغوي نسويا؛ مما جعلها أكثر تناغما مع المنظومة البيئية؛

– جاء التناص في القصة موظفا عبر نوعين: مباشر وغير مباشر، وقد اضطلع التناص المباشر بتحقيق وظيفة أخلاقية تحضُّ على احترام البيئة، أما غير المباشر، فقد وُظف لإبطال مركزية الذات البشرية واستعلائها على المنظومة البيئية؛

– جاء المكان الريفي في القصة رمزا للمثالية؛ لكونه أكثر حرصا على سلامة المنظومة البيئية، في مقابل المدينة التي تخرق هذه المنظومة بالانتهاكات البيئية المتنوعة؛

– ارتبط وصف المكانة في القصة بالبعد النفسي للكاتبة، فيما أطلقنا عليه في البحث (الجغرافيا النفسية) وفيها يجمُل المكان حيث تحل الراحة النفسية، وتحل الراحة حين يحل الاهتمام بالزروع والنباتات؛

– صُنّفَتِ الشخصيات جماليا في القصة على حسب احترامها للمنظومة البيئية أو انتهاكها لها، فهناك شخصيات خضراء، وأخرى نقيضة لها أخلَّت بالطبيعة، وقد نجحت القصة في تمثيل طباعها وفقا لأبعادها الاجتماعية والثقافية؛

–جاءت الشخصية الرئيسة في القصة معادلا موضوعيا للبيئة، فقد تعرضت لمواقف كثيرة وُسِمَت فيها بالمجنونة؛ مما جعلها تبدو في قمة الضعف، لكنها استطاعت التكيف وعدم التخلي عن التزامها البيئي، وهي في ذلك معادلة للبيئة التي تتعرض للتشويه، فتبدو ضعيفة رغم قوتها وقدرتها على التكيف.

ويوصي البحث في النهاية بحاجة الإنتاج السردي لرضوى عاشور لدراسات بيئية معمقة.

وختاما، فالبحث موضوع بين يدَي قارئه، ليكون – بعد ما بُذِل فيه من جهد– في حاجة ماسّة لتسديد المتأنّين، ونقد الأمِيْنِيْنَ من قرّائه؛ لعلَّه يستقيم.

ولله الحمد أولا وآخرا،،

ثَبَتُ المصادرِ والمراجع

- **القرآن الكريم.**

أولا: الكتب العربية:

١. إبراهيم ، عبد الستار: الإنسان وعلم النفس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥.

٢. البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٩٨٩.

٣. بدران، محمد أبو الفضل: النقد الأدبي البيئي (النظرية والتطبيق)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠١٠.

٤. بعلي، حفناوي ، مدخل إلى نظرية النقد المقارن، (المنطلقات، المرجعيات، المنهجيات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

٥. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي(ت٢٣١هـ): ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، ط٥، ٢٠٠٦م.

٦. جيرارد، جرج: النقد البيئوي، تر: عزيز صبحي جابر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط١، ٢٠٠٩م.

٧. حمداوي، جميل: نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، كتاب إلكتروني، منشور بموقع جامع الكتب الإسلامية، ص٣٥٧، ٣٥٨. رابط الكتاب : https://ketabonline.com/ar/books/96899/read?page=2&part=1#p-96899-2-2

٨. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

٩. الشيدي، فاطمة: المعنى خارج النص، أثر السياقات في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوى، دمشق، ٢٠١١.

١٠. عاشور، رضوى: رأيت النخل، سلسلة فصول مختارة، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع(٦٧)، ١٩٨٩.

١١. فوزي، فاطمة الزهراء محمد: النقد الأدبي البيئي: قراءة في الشعر العربي القديم، الجزء الأول، دار الأدهم، القاهرة، ط١، ٢٠١٩.

- **ثانيا: الكتب المترجمة.**

١. روبنس، بول: وآخران: البيئة والمجتمع مقدمة نقدية، تر: خالد مفتاح، منشورات المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٧.
٢. مجموعة من المؤلفين: النقد البيئي، مقدمات، مقاربات، تطبيقات، إعداد وترجمة : نجاح الجبيلي، دار شهريار، العراق، ط١، ٢٠٢٠.
٣. نيس، آرني: حركة الإيكولوجيا العميقة، بعض الجوانب الفلسفية، ضمن كتاب: الفلسفة البيئية، من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، مايكل زيمرمان، تر: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أكتوبر، ٢٠٠٦.

ثالثا: الكتب الأجنبية.

1- Buell, Lawrence. (1995). *The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the Formation of American Culture*. *USA*: The Belknap Press, p. 52.
2- Dreese, Donelle N. (2002*). Ecocriticism: Creating Self and Place in Environmental and American Indian Literatures*. New York: Peter Lang, p.3.

رابعا: المجلات والدوريات العلمية:

١. أحمد، عبد الرحمن عبد الله: إيكولوجيا العتبات في المدونة السيرية" قبل خراب البصرة، كتاب الماء والنخل لطالب عبد العزيز، بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية، مجلة محكمة تصدر عن كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل، مج(٢٨)، ع(٢)، حزيران ٢٠٢١، صص (١-١٥).
٢. بدران، محمد أبو الفضل: أهمية النقد الأدبي البيئي في الدراسات النقدية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع للغة العربية، دبي، ٢٠١٥م، صص(١٩٣-٢٠٣).
٣. برانش، مايكل: النقد الإيكولوجي، الطبيعة في النظرية والممارسة الأدبيّتين، تر: معين رومية، دورية نوافذ، تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع(٣٦)، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ- مايو ٢٠٠٧م، صص(٢٧-٥١).
٤. بور، علي رومي، وآخران: الدراسة والنقد الإيكولوجي لأشعار جواد جميل وطاهر صفر زاده، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة الكوفة، مج(١٠)، ع(٣٧)، ٢٠١٨، صص (٩٣-١١٤).
٥. بوستنيكوف، فيكتور: الشعر الإيكولوجي، تر: معين رومية، دورية نوافذ، تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع(٢٧)، مارس٢٠٠٤، صص(٦٠-٨٤).

٦. توشيتش، جيليكا: النقد البيئي– دراسة في الأدب والبيئة، تر: سناء عبد العزيز، مجلة فصول في النقد الأدبي، مجلة محكمة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج(٢٦/٢)، ع (١٠٢)، شتاء ٢٠١٨.

٧. جويلي، صابر محمد السيد: صورة الضب في المثل العربي القديم، مقاربة في مرآة النقد البيئي، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، العدد السادس، ج(٣)، ٢٠٢١، صص(٩٩٩-١٠٦٤).

٨. الحسامي، عبد الحميد أحمد الحسامي: الضباب أتى.. الضباب رَحَل، قراءة من منظور بيئي، مجلة علامات في النقد الأدبي، مجلة محكمة تصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة، مج(١٧)، ج(٦٨)، فبراير ٢٠٠٩– صفر ١٤٣٠، صص(٢٤٥-٣٠٤) .

٩. حسين، أسماء إبراهيم: النقد الإيكولوجي وتجلياته في روايتي(حرب الكلب الثانية) لإبراهيم نصر الله، و(إسكندرية ٢٠٥٠) لصبحي الفحماوي البحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، ع(٥)، ج(٤)، ٢٠٢٠م، صص(٩٧٤-١٠٤٥).

١٠. الربيعي، نجود: تتساقط الغزلان كالذباب؛ قراءة لقصة الغزلان على ضوء النقد البيئي بحث منشور بمجلة ذوات، مجلة ثقافية إلكترونية شهرية، تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث بالرباط، ع(٦٠)، ٢٠٢٠، صص (١٤٤-١٥١).

١١. السلطاني، إيمان مطر، وآخرَان: النقد البيئي أفق أخضر في الدراسات النقدية المعاصرة، مجلة اللغة العربية وآدابها، علمية فصلية محكمة، تصدر عن كلية الآداب، جامعة الكوفة، مج(٣٣)، ع(١)، رمضان ١٤٤٢– آيار٢٠١٢م، صص(١٢-٤٠).

١٢. السلطاني، إيمان مطر: وآخران، نسق النسوية البيئية في رواية "حديقة حياة"، للطيفة الدليمي، بحث منشور بمجلة: Route Education and Social Science Journal، مجلة علمية محكمة تصدر عن أكاديمية ريس للنشر، تركيا، ع(٦/٢)، يناير ٢٠١٩، صص (٦٢٦-٦٥٢).

١٣. ضياء الرحمن، مقاومة بيئية في شعر محمود درويش، بحث منشور بمجلة الديبل، مجلة علمية نصف سنوية محكمة، تصدر عن مؤسسة بوابة البحث والتحقيق، حيدر آباد، الهند، مج(١)، ع(١)، يناير يوليو ٢٠١٦، صص(١٧١-١٨٨).

١٤. عيسى، خليل عبد القادر يوسف: البيئة في مجموعة أسامة العيسة القصصية "رسول الإله إلى الحبيبة" من رؤية النقد البيئي، ومنظور الماركسية البيئية بحث منشور بمجلة

أوراق ثقافية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، مج(٣) عدد (١٥)، صيف ٢٠٢١، صص (٢٧-٤٦).

١٥. مجاد، خاليد: الإشكال البيئي في فن الرحلة المعاصر" فهد الثلوج" لسيلفان تيسون نموذجا، بحث منشور بمجلة رباط الكتب الإلكترونية، مجلة نصف سنوية متخصصة، تصدر عن مركز تواصل الثقافات بالرباط، (تنشر بأسلوب النشر المسترسل لا الأعداد)، ١٨ ديسمبر ٢٠٢٠، رابط البحث: https://ribatalkoutoub.com/?p=3531

١٦. محمد مصطفى، هناء: المكان في شعر الاتجاه الرومانسي، دراسة في النقد البيئي، بحث منشور بمجلة سرديات، مجلة علمية محكمة تصدر عن الجمعية المصرية للدراسات السردية، ع(٣٠)، ديسمبر ٢٠١٨، صص(١٨٥-٢١٨).

١٧. المشلب، محمد فاضل: البيئة ظهورا شعريا، مقاربة نقدية في أشعار طالب عبد العزيز، مجلة فصول في النقد الأدبي، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع(١٠٢)، شتاء ٢٠١٨ ، ص(٣٢٣-٤٣٦) .

١٨. أبو ملحة، محمد بن يحيى: قصص إبراهيم مضواح، دراسة من منظور إيكولوجي، بحث منشور بمجلة تواصل، مجلة محكمة، جامعة عدن، ع(٢٨)، يناير ٢٠١٢، صص(٢١١-٢٣١).

■■■■■■■■